مجازات النداء وحقيقته وأغراضهما
في الخطاب القرآني

د. ظافر بن غرمان العمري *

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى

* من مواليد عام ١٣٨٤هـ بمدينة الطائف.

- نال شهادة البكالوريوس في تخصص الأدب من كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى عام ١٤٠٨هـ ، ثم نال منها شهادة الماجستير عام ١٤١٧هـ في تخصص البلاغة والنقد بأطروحته: " **التناول البياني في تفسير فتح القدير للشوكاني**"، ثم نال منها درجة الدكتوراه في ذات التخصص عام ١٤٢٥هـ ، بأطروحته: " **مخالفة مقتضى الظاهر في استعمال صيغ الأفعال ومواقعها في القرآن الكريم** " (مطبوعة).
- البريد الإلكتروني: dhafamri@hotmail.com

الملخص

موضوع البحث هو: مجازات النداء وحقيقته وأغراضهما في الخطاب القرآني، ويتناول البحث هذه الحقائق والمجازات من جهة استعمال حرف النداء ومن جهة المنادى، وما تشتمل عليه الجملة المتضمنة النداء منهما ، ويعنى البحث بتحديد أثر المجاز في الغرض البلاغي للنداء، وما يبنى على النداء في حقيقته ومجازه من معان، حيث آثر الخطاب القرآني – في مواطن معينة – النداء على الخطاب خاليا من النداء.

وقد تناول البحث مصطلح النداء لغويا وبيانيا، ثم أدوات النداء في القرآن ولأنه لم يقع في القرآن نداء إلا بـــ(يا) – على أرجح الأقوال – فقد اقتصر البحث عليها من بين الأدوات، وأصل الاستعمال فيها، وتبين من أقوال أهل العلم أن النداء بـــ(يا) خاص بنداء البعيد، فاستعماله للقريب مجاز.

ثم اشتمل البحث بعد ذلك على قسمين رئيسين: أحدهما: النداء من الله، والآخر: النداء من الخلق، مستعرضا حقيقة نداء الله لخلقه، ومجازات استعمال حرف النداء في كل من النداءين، وجاء النداء من الله في ثلاثة أغراض كبرى هي: النداء لتشريف المنادى وتكريمه ،والنداء لإظهار عظمة المنادي (الداعي) وعلو منـــزلته، والنداء لعظم الأمر المدعو له.

أما النداء من الخلق فقد ورد في أربعة أغراض رئيسة هي: النداء لتعظيم المنادى (المدعو)، والنداء لعظم الأمر المنادى له، والنداء للحرص على إقبال المنادى، والنداء للتقليل من شأن المنادى، وفي كل غرض من هذه الأغراض نجد ترابطا بين إيثار نداء القريب بالحرف المخصص للبعيد، وبين الغرض الذي ســـيق من أجله الخطاب المشتمل على النداء ، وتبين ذلك جليا – في نظرنا –

إذ ينـــزل القريب منـــزلة البعيد فيخاطب بخطاب فيه نداء، وذلك للأغراض التي أشرنا إليها، واعتنى البحث بتحليل الشواهد بما يغني عن التكرار في المواطن المتشابهة، إذ ليس غرض البحث هو استقصاء آيات النداء، فقد تحرى مواطن ترابط المجاز والحقيقة في النداء، وأغراض ذلك، وهنا تكمن خصوصية هذا البحث.

وقد ختم البحث بخاتمة تظهر ما وصل إليه من نتائج.

مقدمة

للخطاب في العربية وجوه تُعنى بتحري مناسبة الخطاب للمخاطب، وهو ما يعرف بمقتضى الحال، حيث يراعي المتكلم حال المخاطب، إذ نرى في الإسناد الخبري مراعاة مختلف الأحوال فلكل من خالي الذهن والمتردد والمنكر خطاب يختلف عن غيره، وقد بين ذلك أهل العلم، وبينوا كذلك تنــزيل أحد الثلاثة منــزلة غيره وذكروا أغراض ذلك وأن حال المخاطب استدعى ذلك التنــزيل. هذا في جانب الخبر، وفي جانب الطلب يراعي الخطاب كذلك حال المخاطب من وجوه، منها ما يتعلق بشأن المخاطب نفسه أو بشأن الأمر الذي خوطب من أجله، إذ إن طلب شيء من المخاطب يحتاج إلى مراعاة أمور أحدها: حال المخاطب وما هو عليه من اهتمام بالأمر الذي خوطب من أجله والثاني: منــزلة المخاطب بالنسبة للخطاب، والثالث: منــزلة المتكلم بالنسبة للمخاطب . ولكون المنادَى يقع بين بعد وقرب فقد راعى الخطاب البلاغي هذه الأحوال، وراعى التفاوت بينها. فخطاب البعيد ليس كخطاب القريب، وكذلك المنــزل منــزلة البعيد لأسباب تتعلق بالمخاطب أو بالخطاب.

ومما روعي فيه حال المخاطب في الأساليب الإنشائية ؛ النداء ، وهو يرجع إلى باب الإنشاء الطلبي وقد استعمل في سياقات تتعلق بالطلب إجمالا في سياق الأمر أو النهي أو الاستفهام أو التمني، فالجملة الخطابية حين تساق مضمنة أحد أساليب الطلب السابقة تقترن في الخطاب بأسلوب النداء أحيانا، وتخلو عنه أحيانا أخرى، وما ذاك إلا لمزية ورعاية لمعنى لم يكن ليقع لولا النداء. وهذا البحث يدرس النداء من جهة كونه أحد خيارين في الخطاب، أحدهما أن يكون الخطاب مضمنا النداء مع أن ظاهره لا يســتلزم نداء المخاطب ، إلا أن المقــام

الخطابي اقتضى أن يكون خطابه مضمنا النداء. والآخر خلو الخطاب من النداء.

وتتميز جملة النداء باشتمالها على جملة طلبية غير النداء، لأن النداء قد يأتي به المتكلم لأمر يتعلق بالجملة الطلبية التي اشتملت عليها جملة النداء، وفي الغالب فإن الجملة الطلبية تكون أمرا أو نهيا، وربما تكون نداء أو تمنيا، ويتضح من هذا أن النداء وإن كان طلبا إلا أنه ليس هو غاية الطلب في الخطاب العربي، وهذا ما يدعو لتأمل الغرض المستلزم لاجتلاب النداء - وهو أسلوب طلبي - لخدمة أسلوب طلبي آخر.

وعلى هذا فإن النداء في القرآن الكريم يراد به معنى يدعم الطلب المشتمل عليه سياق الخطاب. وذلك هو مناط الأغراض البلاغية التي يقوم عليها النداء في الكتاب الكريم، وهكذا فقد عنيت هذه الدراسة بتقصي ما ورد فيه من النداء للبحث عن أغراض استعماله في مقامات لم يكن المخاطب فيها بعيدا ينادى بنداء من لا يبلغه خطاب الداني، فاقتضى ذلك أن يكون الموضوع جاريا على هذا المنحى من تتبع هذه الخاصية.

وقد حفلت مباحث البلاغة بمسائل النداء إلا أن النظر يوجب تتبع أثر الاستعمال المجازي لهذا الأسلوب، لأن له مدخلا في وجه الخطاب الطلبي بعده. ويوجب كذلك البحث في خاصية الجانب المجازي في النداء وأثر ذلك الجانب على الاستعمال الحقيقي لمضمون جملة النداء حيث نبه أهل العلم على ورود النداء في صورتي الحقيقة والمجاز واشتمال كل منهما على أغراض ونكات، وهو تنبيه يدعو إلى تأمل جملة النداء. إذ يتضح شدة الصلة بين الاستعمال المجازي للنداء وغرض التركيب في الجانب الحقيقي من جملة النداء، وغرض هذه الجملة ليس هو حرف النداء والمنادَى، بل هو ما سيق النداء من أجله، لأن النداء -كما

تقدم – ليس غرضا للخطاب بل هو إنشاء يسلكه المتكلم ليتوصل به إلى غرض آخر، ولذا نجد تآزرا بين النداء (حرف النداء والمنادَى) وبين سائر مكونات جملة النداء في القرآن الكريم. وعلى ذلك فقد انتهجت هذه الدراسة منهجا يقوم على جعل الغرض المجازي للنداء مفتاحا للغرض المراد من التركيب الحقيقي لجملة النداء، لأن النداء قد يكون فيه حرفه مستعملا استعمالا مجازيا ثم يكون المنادَى بعده حقيقة فتكون جملة النداء (حرف النداء والمنادَى) مركبة من مجاز وحقيقة، والغرض البياني يستخلص من اجتماعهما، فنجد للمجاز مدخلا في غرض الحقيقة، ثم إن هذا الغرض الذي سيقت له جملة النداء يسري أثره في تركيب جملة النداء كاملة.

وبالنظر إلى ما ورد في الكتاب الكريم نجد النداء صادرا من الله أو محكيا عن الخلق، وفي كل منهما يقع الاستعمال المجازي للنداء، ويكون تنـــزيل البعيد منـــزلة القريب حيث نبه البيانيون على أن هذا التنـــزيل وراءه أغراض وله دواع استوجبته، فاقتضى ذلك أن يكون البحث ذا شقين أحدهما يتناول النداء الصادر من الخالق سبحانه ، والآخر يعنى بالنداء الذي حكاه القرآن عن الخلق. وبتتبع مواطنه في القرآن الكريم ظهر جليا أن تنـــزيل القريب منـــزلة البعيد يقع في أغلب مواطن النداء.

ولا ريب أن النداء إنما يكون بأداة ، وإن كان وقع لبعض أهل العلم تسمية ذلك صيغة فلعله يراد به أسلوب النداء وهو التركيب الوارد فيه أداة النداء والمنادَى وجملة الطلب التابعة للمنادى، ثم لا يخلو هذا الأسلوب من أن يكون مضمنا جملة خبرية أو خاليا عنها ، أو أن يكون النداء عقيب الطلب وليس هذا بالشائع شيوع الأول الذي يستهل الخطاب فيه بالنداء.

النداء (الاصطلاح والدلالة البيانية):

النداء في اللغة هو الصوت، وناداه صاح به[1]. ويعرفه البيانيون بأنه: « طلب الإقبال حسا بحرف ناب مناب "أدعو"، سواء كان ذلك الحرف ملفوظا أو مقدرا »[2].

وبهذا التعريف يفهم أن النداء يطلب به الإقبال ولا يكون الإقبال إلا من البعيد لأن الإقبال المراد هنا، إنما هو الإقبال المكاني أي الانتقال من المكان البعيد إلى المكان القريب. ولذا قيدوا التعريف بقولهم: (حسا) ليفهم منه أولا الإقبال المكاني، أو الإقبال بالجسد.

وإذاً فإن الأصل في هذا الباب أنه موضوع للبعيد وإسماعه والهتاف به، وأن أداة النداء (يا) التي هي أم الباب وأشهر أدواته، وأكثرها استعمالا، إنما تستعمل لنداء البعيد في الأصل، يؤيد ذلك ما نجده في كتاب سيبويه إذ يقول: « فأما الاسم غير المندوب فينبه بخمسة أشياء: بـ(يا، وأيا، وهيا،وأي، وبالألف). نحو قولك: أحارِ بن عمرو، إلا أن الأربعة غير الألف قد يستعملونها إذا أرادوا أن يمدوا أصواتهم للشيء المتراخي عنهم، والإنسان المعرض عنهم، الذي يرون أنه لا يقبل عليهم إلا بالاجتهاد، أو النائم المستثقل. وقد يستعملون هذه التي للمد في موضع الألف ولا يستعملون الألف في هذه المواضع التي يمدون فيها. وقد يجوز لك أن تستعمل هذه الخمسة غير (وا) إذا كان صاحبك قريبا منك، مقبلا عليك، توكيدا »[3].

(١) اللسان ٣١٥/١٥ (مادة ندي)، لجمال الدين بن منظور، غير محدد الطبعة، دار صادر ، بيروت.

(٢) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي (ضمن شروح التلخيص ٣٣٣/٢، الطبعة غير محددة الطبعة أو التاريخ، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة).

(٣) الكتاب، لسيبويه٢٣٠/٢، بتحقيق عبدالسلام هارون-الطبعة الثالثة١٤٠٨هـ، دار الكتب العلمية،بيروت.

وهذا النص يفهم منه أن النداء بحرف سوى (الهمزة) إنما يستعمل في الأصل لنـــداء البعيد، وهو ما ذهب إليه أغلب أهل العلم، قال ابن مـــالك: « وكون الهمزة للقريب وما سواها للبعيد هو الصحيح، لأن سيبويه أخبر بذلك رواية عن العرب، ومن زعم أن (أي) كالهمزة في الاختصاص بالقرب لم يعتمد في ذلك إلا على رأيه، والرواية لا تعارض بالرأي. وصاحب هذا الرأي هو المبرد وتبعه كثير من المتأخرين» (١).

ثم إن في كلام سيبويه ما يفيد أن نداء المتراخي يكون بمد الصوت، ولعل تسمية النداء (نداء) ناظر إلى ما فيه من معنى البعد، ففي القـــاموس « النـــداء بالضم والكسر، الصوت وناديتـــه وبه، والندى بُعْدُه وهو نـــديّ الـــصوت بعيده » (٢)، وقال في اللسان: « النَّدى بُعْد مدى الصوت،وندى الصوت: بُعْدُ مذهبه. والنداء -ممدود- : الدعاء بأرفع الصوت، وقد ناديته نـــداء، وفـــلان أندى صوتا من فلان أي أبعد مذهبا، وأرفع صوتا، وأنشد الأصمعي لمـــدثار بن شيبان النمري:

فقلت: ادعي وأدعُ إن أندى لصوت أن ينادي داعيان »(٣)

وممن قال بدلالة (يا) على البعد العلامة الزمخشري قال في المفصل: « يا، وأيا، وهيا،وأي، والهمزة، ووا، فالثلاثة الأول لنداء البعيد أو من هو بمنـــزلته مـــن

(١) شرح التسهيل لجمال الدين بن مالك، ٣٨٦/٣، تحقيق د/ عبد الرحمن السيد، ود/محمد بدوي، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، دار هجر، مصر.

(٢) القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزابادي٥٧٢/٤، الطبعـــة الأولى ١٩٩١م، دار إحيـــاء التـــراث الإسلامي، بيروت.

(٣) اللسان ٣١٥/١٥ (مادة ندي).

نائم أو ساه »[1] وقال في الكشاف: « (يا) حرف وضع في أصله لنداء البعيد، صوت يهتف به الرجل بمن يناديه »[2]. وقد نسب أبو حيان لسيبويه أنه روى عن العرب أن الهمزة للقريب وما سواها للبعيد[3]. وهذا الأقوال في عمومها ترجيح للقول بأن (يا) تستعمل في الأصل لنداء البعيد، ليُعلم بعد ذلك أولويته على الرأي الذي يرى أن (يا) للنداء مطلقا وهو رأي ابن الحاجب، إذ يقول في الكافية: « حروف النداء: (يا) أعمها »[4]، قال الرضي: « أي ينادى بها القريب والبعيد»[5]. ثم ذكر أن دعوى المجاز في أحدهما خلاف الأصل. ولنا في هذا كلام سيبويه فيما نقله عن العرب، وما ذكره ابن مالك يعد توضيحاً لكلام سيبويه. والذي يظهر أن كثرة استعمال (يا) في نداء القريب أزال صورة المجاز من الأذهان، غير أنه لا بد من الأخذ بالأصل في استعمال العرب وهو أن (يا) تستعمل لنداء البعيد.

---

(١) المفصل٣٠٩، لأبي القاسم الزمخشري، الطبعة الثانية، غير محددة التاريخ ، دار الجيل ، بيروت، وينظر كذلك الكشاف لنفس المؤلف٢٢٤/١. حققه محمد الصادق قمحاوي. الطبعة الأخيرة ١٣٩٢هـ، مطبعة البابي الحلبي، مصر.

(٢) الكشاف عن حقائق التنْزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لجار الله الزمخشري ، حققه محمد قمحاوي٢٢٤/١.

(٣) ارتشاف الضرب من لسان العرب٢١٧٩/٤، لأبي حيان الأندلسي، بتحقيق د/رجب عثمان محمد، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، مكتبة الخانجي، القاهرة.

(٤) الكافية في النحو لابن الحاجب ٣٨١/٢، غير محدد الطبعة، أو تاريخها، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٥) شرح كافية ابن الحاجب للرضي ٣٨١/٢، غير محدد الطبعة، أو تاريخها، دار الكتب العلمية، بيروت.

ويمكن القول بناء على ما تقدم أن النداء في الأصل وضع غالبا للبعيد، فنداء غير البعيد استعمال للنداء في غير ما وضع له، وإن كنا نكاد نجزم بأن (الهمزة) حرف تنبيه ألحق بباب النداء لأنه في الأصل للقريب وذلك بالنظر إلى كلام سيبويه وما نقله عن العرب ، ولذلك كانت أدوات النداء كلها في الأصل للبعيد إذا استثنينا (الهمزة). ولأن الأصل البياني أن المجاز هو استعمال اللفظ في غير ما وضع له في اصطلاح به التخاطب عند قيام القرينة الصارفة عن إرادة المعنى الأصلي. فإن كل نداء لغير البعيد داخل في المجاز، هذا هو الأصل في النداء غالبا.

ولا يعترض ذلك كثرة نداء القريب بهذه الأدوات المخصصة للبعيد أصلا، فإن كثرة الاستعمال لا تلغي الأصل المجازي، على أن كثرة استعمال اللفظ مجازيا تدخله في عموم المجاز لتصبح الحقيقة بعضا من استعماله. إلا أن ما يلاحظ من أغراض تتبع نداء القريب، يؤيد القول بأنه مازال وحي المجاز يسري في ثنايا نداء القريب بإحدى هذه الأدوات الأربع المذكورة.

وباب النداء يتضمن مباحث لطيفة، والدراسة البلاغية تعنى بكل من حقيقته ومجازاته، يستوي في ذلك الجانب الدلالي، وجانب النكات وأغراض اختيار حقيقته أو مجاز من مجازاته. قال في الأطول: « بيان حقيقته [أي النداء] وظيفة لغوية، ومجازاته بيانية، ونكات اختيار الحقيقة أو مجاز من مجازاته وظيفة هذا العلم »(١). يريد بذلك علم البلاغة.

---

(١) الأطول، لعصام الدين الحنفي، ٦٠٥/١، بتحقيق عبد الحميد هنداوي، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ، بيروت.

ولأننا بصدد دراسة النداء في القرآن الكريم فإننا سنقصر دراستنا فيما يتعلق بالأدوات على ما ورد منها في القرآن الكريم، إذ لم نجد في الكتاب الكريم نداء بغير (يا) عدا ما ذكره الفراء، من احتمال أن تكون الهمزة وردت للنداء في القرآن على وجه من القراءة. قال الإربلي: « ولم يرد في القرآن نداء بغير (يا) لكن نُقل عن الفراء[1] أنه في قراءة من قرأ قوله تعالى:﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴾[الزمر:٩] -بتخفيف الميم- أنه نداء بالهمزة فلا تبقى الدعوى مطلقة »[2].

أما وجه الدلالة في استعمال حرف النداء (يا) لنداء القريب فيتضح فيه سعة الاستعمال، وخصوبة المعاني، حيث يذكر البيانيون أن ذلك إما أن يكون مجازا مرسلا، أو استعارة تصريحية، أو استعارة مكنية وتخييلية. وفي هذه الوجوه المتعددة التي يحتملها نداء القريب بـ(يا) تظهر خصوبة المعاني وعمق التعبير خاصة في النظم الكريم الذي كثر فيه أسلوب النداء من الله لعباده، وتضرعهم إليه سبحانه.

فأما الوجه الأول الذي هو دلالة المجاز المرسل فإن النداء معناه الدعاء، أي دعاء البعيد، فإذا استعملت أداة النداء (يا) في نداء البعيد فهو استعمال على حقيقته ويلزم من دعاء البعيد حينئذ وإبلاغه إبلاغ من هو دونه وأقرب منه لأن إسماع القريب لازم للدعاء والهتاف الذي هو نداء البعيد، فالخطاب حينئذ

---

(١) ينظر معاني القرآن لأبي زكريا الفراء٤١٧/٢ بتحقيق الأستاذ محمد على النجار، لم تحدد طبعته، الدار المصرية للتأليف.

(٢) جواهر الأدب لعلاء الدين الأربلي بتحقيق الدكتور حامد أحمد نيل، (لم تحدد الطبعة) ١٤٠٤هـ، مكتبة النهضة المصرية.

يصلح للقريب كما يصلح للبعيد، ضرورة أن ما خوطب به البعيد فإن القريب مدرك له؛ فلازم إبلاغ البعيد هو إبلاغ القريب فاستعمل الملزوم وأريد به لازمه فالعلاقة هي الملزومية. وهذا بيان لما ذكره الشهاب في نداء القريب بـ(يا) حيث يقول : « استعمل في لازم معناه على أنه مجاز مرسل »(١).

كذلك فإنه يحتمل أن يكون الاستعمال من باب الاستعارة التصريحية التبعية في حرف النداء (يا) وهو الوجه الثاني من وجوه الاستعمال المجازي له، قال القونوي: « قول الداعي (يارب) ينزل البعد الرتبي منزلة البعد المكاني فيناديه بلفظ البعيد على أنه استعارة تبعية في لفظة (يا) »(٢). ومن المعلوم أن الاستعارة التبعية في الحرف مبنية على استعمال الحرف في غير ما وضع له في أصل الاستعمال. فحرف (يا) كما تبين وضع لنداء البعيد، فنزل البعيد الرتبي منزلة البعيد المكاني ثم استعمل الحرف الدال على البعد المكاني للدلالة على البعد الرتبي، هذا إذا كان المنادَى بعده رتبيا، أما كونه « نائما أو ساهيا حقيقة فيجعل كل واحد من النوم والسهو بمنزلة البعد في إعلاء الصوت »(٣). وواضح أن هذا النوع من الاستعارة داخل في استعارة المحسوس للمعقول، وذلك بتشبيه البعد الرتبي وهو عقلي بالبعد المكاني وهو حسي.

وهذه الحالات الثلاث تتعلق بالمنادَى- أعني كونه بعيداً رتبياً أو نائماً أو ساهياً - فالحالة الأولى أن يكون المنادَى بعيدا رتبيا، والثانية أن يكون المنادَى

---

(١) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي المسماة (عناية الراضي وكفاية القاضي)٣/٢. للشهاب الخفاجي، غير محدد الطبعة، أو تاريخها. دار إحياء التراث العربي بيروت.

(٢) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي٣٤٥/٢، لعصام الدين الحنفي، ضبطه وصححه عبدالله محمود عمر، الطبعة الأولى١٤٢٢هـ، دار الكتب العلمية ،بيروت.

(٣) حاشية الدسوقي على مختصر السعد(ضمن شروح التلخيص ٣٣٤/٢).

نائما، **والثالثة** أن يكون المنادَى ساهيا. أما **الحالة الرابعة** فتتعلق بالأمر المدعو له فإنه كلما كان عظيما و « بلغ من علو الشأن إلى حيث إن المخاطب لا يفي بما هو حقه من السعي فيه، وإن بذل وسعه واستفرغ جهده فكأنه غافل عنه بعيد »[(١)]. فتبين أن المنادَى القريب في الحالات الأربع نزل منزلة المنادَى البعيد على طريقة الاستعارة التبعية في حرف النداء (يا) .

والوجه الثالث من دلالة هذا النوع من الاستعمال – أعني نداء القريب بأداة نداء البعيد (يا)، بأن يكون على طريقة الاستعارة المكنية والتخييلية، وذلك في نداء العبد لربه ودعائه له في قوله: (يا رب) ونحوها. فإن الله قريب من عباده بدليل قوله تعالى:﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] . وقال تعالى : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦] والقرب المقصود هنا كما بينه أهل العلم هو قرب بعلمه تعالى[(٢)] فإذا دعاه الداعي بأداة نداء البعيد (يا) فإن في ذلك الدعاء استعمالا للأداة في غير ما وضعت له، لأن الداعي إما أنه يحقر نفسه عن منزلة القرب فذلك "استقصار منه لنفسه واستبعاد لها من مظان الزلفى وما يقربه إلى رضوان الله، ومنازل المقربين، هضما لنفسه وإقرارا عليها بالتفريط في جنب الله مع فرط التهالك على استجابة دعوته والإذن لندائه وابتهاله"[(٣)] ، أو أنه يقدر منزلة

(١) المصدر السابق.

(٢) قال السعدي: « القرب نوعان: قرب بعلمه من كل خلقه، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة ». ينظر لذلك : تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن، لعبدالرحمن بن ناصر السعدي، ١/١٥٢، الطبعة الأولى ، غير محددة التاريخ، مكتبة الأوس، المدينة المنورة.

(٣) الكشاف ١/٢٢٥.

ربه بعيدة عنه لعلوه سبحانه وإن كان قريبا، وذلك تعظيم من الداعي للمدعو. إذ نــزل الداعي نفسه منــزلة البعيد استصغارا لها واحتقارا لمقامها أمام خالقها.

فالداعي يجري في تصوره ووهمه أنه بعيد عن المنــزلة الــتي تخولــه لنيــل الاستجابة، فيتخيل بعد منــزلته عما هي عليه حقيقة، وينــزلها منــزلة البعيــد فينادي ربه بــ(يا) وهي من لوازم نداء البعيد، فكأنه دل على نداء البعيد بشيء من لوازمه وهو (يا). ولعل هذا هو مرادهم بالمكنية والتخييلية، لأن نداء ربــه بــ(يا) فيه تخييل منه لنفسه أنه بعيد المنــزلة، وهذا التخييل هو قرينة المكنية،أي نسبة البعد لنفسه بقرينة استعمال أداة البعد للجؤار والتضرع.

وقد بين أهل العلم أن المجاز يدخل في نداء الله لمخلوقاته من غير العقلاء ففــــي قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود:٤٤] يشير الزمخشري إلى نداء الله الأرض والسماء وخطابها بما يخاطب به العقلاء ، مبينا الاستعارة، وإن لم يصرح بذلك، لكنه ذكر التشبيه المؤذن بالاستعارة، فقال: « نداء الأرض والسماء، بما ينادى به الحيوان المميِّز على لفظ التخصيص والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات، وهو قوله: ﴿ يَٰٓأَرۡضُ ﴾ ، و﴿ياسماء﴾ ثم أمرهما بما يأمر به أهل التمييز والعقل من قوله: ﴿ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ و﴿ أَقۡلِعِي ﴾ من الدلالة على الاقتدار العظيم، وأن السموات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعة عليه كأنها عقلاء مميِّزون قد عرفوا عظــمته وجلالتــه وثوابه وعقابــه وقدرته على كل مقدور»[(١)]. ويوضح ابن

(١) الكشاف ٢/٢٧١.

التمجيد الاستعارة وقرينتها وترشيحها إذ يقول: « قالوا هذه استعارة مكنية حيث شبه الأرض والسماء بالعقلاء المميزين فاستعيروا لهما استعارة بالكناية وجعل النداء قرينتها استعارة تخييلية، ثم رشحت الاستعارة بالأمر وبالبلع لاختصاصه بالحيوانات[1] لأن البلع إدخال المطعوم في الحلق بعمل الجاذبية فهو ترشيح في ترشيح »[2]. وحمله البيضاوي على التمثيل، فقال: « نوديا بما ينادى به أولو العلم وأُمرا بما يؤمرون تمثيلا لكمال قدرته »[3]. و « فيه إشارة إلى أن النظم استعارة تمثيلية، شبهت الهيئة المنتزعة من كمال قدرته على رد ما انفجر من الأرض إلى بطنها وجعله مضمحلا بحيث لا يبقى له أثر ولا رسم وقطع انصباب المطر من السماء وحصول ذلك حين تعلقت إرادته العلية بلا مهلة ولا ريث بالهيئة المنتزعة من أمر الآمر المطاع وطاعة مأمور مطيع للآمر الذي يأمره بلا توقف فذكر اللفظ المركب الدال على الهيئة المشبه به وأريد به الهيئة المشبهة ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من الانقياد والامتثال بلا توقف ولا تلعثـــم»[4].

ويفهم مما سبق من كلام أهل العلم أن مدخل المجاز في نداء هذه المخلوقات جاء من جهتين **إحداهما:** هو استعمال حرف النداء (يا) لنداء هذه

---

(١) قوله: الحيوانات بعد تسميتهم المميزين لا تناقض فيه، ففد ذكر الجنس أولا لتميـــزه بالعقـــل، ثم أردف بالنوع لشمول البلع فيه، فلم يجعل البلع مختصا بالمميزين فناسب أن يأتي بالنوع.

(٢) حاشية ابن التمجيد على تفسير البيضاوي، لمصطفى بن إبراهيم الرومي١٠/٩٠، صححه عبدالله محمود عمر، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) أنوار التنـــزيل وأسرار التأويل، للقاضي ناصر الدين عبدالله بن عمـــر البيـــضاوي١/٤٥٨، دار الكتب العليمية بيروت.

(٤) حاشية القونوي ١٠/٩٠.

المخلوقات تنـــزيلا لها منـــزلة البعيد، **والأخرى:** أنها خوطبت بما يخاطب به العقلاء، وهذه الأقوال التي تحمل الخطاب على أنه خطاب غير حقيقي في الآية -على نفاستها- لا تمنع من أن يحمل المعنى على الحقيقة، إذ لا يمتنع أن يكون لتلك الجمادات إدراكٌ وتمييزٌ اللهُ يعلمه ونحن لا ندركه، وهذا يدل عليه مخاطبتها بالتكليف في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ [الأحزاب:٧٢] ولقد أمرهما الله بقوله: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت:١١] ، فأجابتا بالطاعة، وقوله: ﴿طَآئِعِينَ﴾ و لم يقل (طائعتين أو طائعات) مع أنه الأولى من جهة ما يقتضيه الظاهر باعتبار أن غير المميز لا يخاطب. لكن عدلت الآية إلى ما يناسب العقلاء تدليلا على إجابتهن كما يجيب العاقل المميز، ومثله ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴾ [يوسف:٤] فقوله: ﴿سَٰجِدِينَ﴾ يدل على الامتثال الذي لا يكون إلا من المميز، وكذا قوله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء:٤٤] فقال: ﴿ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ كذا بإضافة التسبيح إلى ضمير ذكور العقلاء ، و لم يقل: "تسبيحه" كما يقتضي ظاهر قوله: ﴿شَىْءٍ﴾و لم يقل: "تسبيحها" كما يقتضيه ظاهر الحديث عن غير العاقل على ما هو معروف في النحو. ذلك لأن النكرة في سياق النفي دلت على العموم وهو عموم قيده نفي الفقه عن المميزين فدل التسبيح المقصود على أنه تسبيح غير المميزين، ومع ذلك لم يُراعَ الظاهر وإنما روعي ما يستدعيه المقام من بيان استجابة غير المميز وطاعته وامتثاله كما يمتثل

ذو التمييز، ولعل في ذلك بيانا لدخول غير المميز من الحيوانات والجمادات في حكم العقلاء المميزين حينما تستجيب وتمتثل للأمر. ولذا فإنه حينما أشفقت السموات والأرض وأبت من حمل الأمانة لم يقل "أشفقوا"، و"أبوا"، فقد يكون في ذلك إشارة إلى أن الطاعة والامتثال من غير المميز أولته صفة العقل وكمال الإدراك[1].

ونحن بهذا نميل إلى القول بأن نداء الله لمخلوقاته من غير المميزين إنما هو نداء على حقيقته لما بيناه، ولأن كلام أهل العلم لم يتضمن نفيا للحقيقة، وليس في الآية ما يلجئ للقول بأن الخطاب مجاز مادامت الحقيقة تسع المعنى وتظهر مزية من مزايا النظم، وتبين بعض أسرار الكون، وذلك وجه من وجوه الإعجاز. وإنما مدخل المجاز في هذا النوع من الخطاب يأتي في نداء تلك المخلوقات بنداء البعيد.

(١) وانظر إلى قول جرير:

ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام

إذ آثر اسم الإشارة (أولئك) على (تلك)، لأنه يرى أن الحياة الحقيقية في أولئك الأيام. فأشار إليها بما يستعمل غالبا في الإشارة لذكور العقلاء ، والمشهور أن يقال: تلك الأيام. ولا يقال إن النظم ألجأ الشاعر لأولئك دون تلك، لأن جريرا أقدر من أن يلجئه النظم إلى معنى أقل مما في نفسه.

القسم الأول: النداء من الله

أولا: إظهار عظمة المنادي وعلو منـــزلته:

يخاطب الله بعض مخلوقاته مناديا إياها بنداء البعيد تنبيها على علو مقامه تعالى، وهذا النوع من النداء يناسب عظمة الله وعلوه عن خلقه، وكبريـــاءه وقدرته وعزته، فتستعمل فيه طريقة النداء الدالة على البعد. وقد ذكر الطيـــبي هذه الطريقة في النداء فيما نقله عنه ابن التمجيد، قال: « يراد بالبعد بحـــسب المنـــزلة والمرتبة إما من جهة المتكلم كقوله تعـــالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى ﴾ [هود٤٤] إظهاراً لعظمته وكبريائه، وإبداء لشأن عزته، وتهاونـــا بالمنادى، وتبعيدا له »(١). فنداء البعد في الآية أفاد بعد منـــزلة الداعي وعلوها وهوان المدعو وحقارة شأنه على الله، وحقارة الشأن هنا حقارة مخلوق بالنسبة للخالق، وليست حقارة بسبب ذنب أو جرم.

ولعل منه قوله تعالى- آمـــرًا النـــار-: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء٦٩] وكذلك قوله تعالى آمرا الجبال : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾[سبأ١٠] وهذه الآية بالإضافة إلى مـــا فيها من تعظيم الله لمنـــزلته وبيان علو قدره، فإن فيها " من الفخامـــة مـــا لا يخفى حيث جعلت الجبال بمنـــزلة العقلاء الذين إذا أمرهم بالطاعة أطـــاعوا، وإذا دعاهم أجابوا إشعارا بأنه ما من حيوان وجماد إلا وهو منقاد لمـــشيئة الله تعالى، ولو قال آتينا داود منا فضلا تأويب الجبال معه والطير لم يكن فيه هذه

(١) حاشية ابن التمجيد ٣٤٨/٢.

الفخامة " (١). وذلك أن تلك المخلوقات التي تكبر في صدور الناس إذا نوديت بنداء البعيد كان في ذلك بيان لكبريائه وعظمته تعالى، وأنها على عظمتها وشدها ليست تساوي عند عظمة الله وقدرته شيئا وإنما هي مأمورة طائعة ولعل هذا هو المراد بالفخامة في كلام النسفي الآنف.

وأمر آخر هو أن نداء هذه المخلوقات ثم إتباع ندائها بأمر لا تملك فيه إلا الطاعة والتذلل؛ قد يستفاد منه التعريض بالإنسان الذي كثر نداؤه في القرآن بأساليب أقوى تنبيها وتذكيراً مما نوديت به وكانت استجابتها أسرع وأقوم من استجابة الإنسان.

إن الطريقة التي نوديت بها هذه المخلوقات تختلف عما نودي به الإنسان مؤمنهم وكافرهم، فلم تناد بنداء البعيد (يا أيها) وإنما نوديت بـ(يا)، وقد ذكر البيانيون أن النداء بطريقة (يا أيها) إنما كثر في كتاب الله "لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب المبالغة لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيه وعظاته وزواجره ووعده ووعيده واختصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم وغير ذلك مما أنطق به كتابه أمور عظام وخطوب جسام ومعان عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم عنها غافلون، فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ" (٢). فاتضح أن نداء هذه المخلوقات من غير ذوات التمييز خلا من التوكيد والتنبيه بما يشعر بأنه لا حاجة إلى تنبيهها كما ينبه ابن آدم، وفيه ما فيه من التعريض بكفر الإنسان ومعصيته.

---

(١) تفسير النسفي المسمى" مدارك التنزيل وحقائق التأويل" للإمام عبد الله بن أحمد النسفي٢/٣٦٣، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) الكشاف ١/٢٢٦.

واحتمال آخر هو أن نداء الإنسان لّما كان مقدمة لأمر أو نهي يتعلق بأعظم الأمور وهو العبادة جاء مصدرا بالتنبيه والتوكيد، أما هذه المخلوقات فقد برئت من الأمانة التي حملها الإنسان فنداؤها خال من التنبيه إلى عظم الأمر المدعو له.

وإذا كان التنبيه والتأكيد في النداء يشير إلى تنزيل المنادَى منزلة الغافل الساهي عما نودي له، فإن ذلك غير محتمل في نداء النبي عليه السلام، فلم يناد إلا بقول: (يا أيها النبي) و(يا أيها الرسول)، وقد أشرنا من قبل إلى قول القونوي: « ناداه بالنبي كما ناداه بالرسول في بعض المواضع، ولم يناده باسمه العَلمي قط... فإن مواجهة العظماء بأسمائهم ليست من عادة الكرماء ... وأما طريقة البعد فلكون المدعو له أمرا ثقيلا في نفسه وإن كان سهلا بتوفيقه » (١). فنداء النبي أريد منه الإشارة إلى ما في اللقب من الفضيلة، ولأنه لا ينادى إلا بقول: (يا أيها) فإنه يحمل التنبيه والتأكيد فيه على التنويه بالأمر المنادَى له مع تعظيم المدعو. والله أعلم.

وقد يكون نداء إبليس بنداء البعيد في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[الحجر٣٢]وقوله تعالى:﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ [ص:٧٥] قبل إخراجه من الجنة؛ داخلا فيما ذكره البيانيون من أن نداء البعد قد يستعمل في نداء غير المتراخي إذا أريد بيان انحطاط شأنه وبعده عن مجلس الحضور (٢). وفي الاستفهام التابع النداء

(١) حاشية القونوي١٥/٢٨٩-٢٩٠، ويراجع في ذلك ص١٧١من هذا البحث.

(٢) ينظر لذلك مواهب الفتاح (ضمن شروح التلخيص ٢/٣٣٤).

معنى التوبيخ . مما يؤكد أنه نودي لبيان حقارته وتوبيخه على معصيته. وقد كان خطاب الله ونداؤه لإبليس وهو في الجنة وإبليس – نعوذ بالله منه– لم يكن متراخيا بعيدا ونداء الله له حاضر مسموع، لأنه لم يكن عوقب حينئذ بالإخراج من الجنة، بدليل أنه أجاب – عاصيا والعياذ بالله– بما حكى عنه القرآن بقوله: ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر:٣٣].

ثانيا: نداء التشريف والتكريم:

لقد نادى الله خلقه في القرآن الكريم، وهو نداء البائن من خلقه، وإن كان معهم بعلمه، فنداؤه تعالى لهم نداء من علوٍّ، إلا أنه لما كان سبحانه معهم بعلمه وقدرته فإن استعمال حرف النداء (يا) الموضوع لنداء البعيد حينئذ إنما هو استعمال مجازي، هذا الذي جرى عليه كلام أهل العلم من البلاغيين(١) إذ نرى كلامهم عن نداء الله لخلقه على أنه خطاب للقريب استعمل فيه النداء بأداة البعد، وذلك مبني على ما تقدم من قول الله تعالى:﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦] وقال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق:١٦] وقد خاطب سبحانه رسله وأنبياءه

(١) ينظر لذلك التلخيص وشروحه (٣٣٣/٣ وما بعدها، والمطول لسعد الدين التفتازاني٢٤٤، لم تحدد طبعته، الناشر المكتبة الأزهرية للتراث،مصر. والتبيان في البيان للإمام الطيبي ٣٣٦، بتحقيق عبدالستار زموط،لم تحدد طبعته، دار الجبل بيروت، ومفتاح تلخيص المفتاح لشمس الدين الخلخالي٣٦٧، بتحقيق د.هاشم محمد هاشم، الطبعة الأولى ٢٠٠٧، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر. فيض الفتاح على نور الإقاح، لسيدي عبدالله بن الحاج الشنقيطي٢٥٤/١، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ، لم يحدد مكان الطباعة.

وصالحي الخلق وعموم العباد والكفار والمشركين والمنافقين مناديا لهم. وخاطب بالنداء غير البشر من جن وجمادات.

وعُنِيَ القرآن الكريم بشأن الأنبياء ورسالاتهم وبيَّن تعزير الله لهم ، وأعلن ذكرهم في أممهم. و يخبرنا القرآن بنداء الله لهم فيما يوحى إليهم لشدِّ أزرهم وتقوية عزائمهم، كما أنه يزيدهم شرفا وتكريما.

وكان نداء آدم في الجنة نداء تشريف وتكريم، فكأن في النداء باستعمال (يا) المفيد للبعد إعلانا وتنويها بشأن آدم. قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ ﴾ [البقرة:٣٣] وقال تعالى: ﴿ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ [البقرة:٣٥] فإنه سبحانه أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، لكن جاء النداء في الآيتين بأداة البعد (يا)، ليتبين أن استعمالها إنما هو " للتنويه بشأن آدم وإظهار اسمه في الملأ الأعلى حتى ينال بذلك حسن السمعة مع ما فيه من التكريم عند الآمر" (١). فحين يخاطب آدم بندائه بما ينادى به البعيد فإن ذلك ليس لغفلة آدم أو سهوه وإنما هو إعلام للسامع بمكانة المنادَى فهو تشريف وتكريم له وإشهار لذلك التشريف والتكريم على الأسماع. ونلحظ أن خطاب الله لآدم بعد إزلال الشيطان له خلا من هذا النداء وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [البقرة:٣٦] فعلم أن النداء، كان لتشريف آدم ورفع شأنه والتنويه به.

وكثيرا ما يقترن نداء التشريف بذكر الصفات الكريمة والأسماء الحسنة للمنادى، فيزداد تشريفا وذلك لأنه يخاطب المنادَى بأفضل وأحب صفاته لنفسه

(١) التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور١/٤٢٨، غير محدد الطبعة،١٩٨٤، الدار التونسية، تونس.

وأعلاها صيتا، ويتبالغ مقدار التشريف كلما كان النداء متبوعا بأمر جليـــل، فإن الإعلام والتنويه بشأن المنادَى في مقام تكليفه يوحي بعظم ما كلف بـــه، فيكون تعظيم المنادَى ذريعة لبيان عظم ما نودي لأجله.

لذلك فإن نداء التشريف للنبي محمد صلى الله عليه وســـلم، لم يـــأت بصريح اسمه وإنما كان بما رفع الله به شأنه وفضله به على سائر خلقـــه وهـــو نبوته ورسالته عليه السلام، فكان نداء القرآن بـــ(يا أيها النبي) ، و (يا أيهـــا الرسول) ، تنويها بعظم منـــزلته رسولا نبيـــاً، قال تعـــالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [الأحزاب:٤٥]وقال تعالى مخاطبا النبي بأمر عظيم هو التقوى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب:١]حيث نادى نبيه بحرف نداء البعيد تعظيما له، كما رأينا نداءه تعالى لآدم تنويها بذكره. ولأن وراء النداء أمـــرا عظيما هو التقوى. قال القونوي: « ناداه بالنبي كما ناداه بالرسول في بعـــض المواضع، ولم يناده باسمه العَلَمي قط... فإن مواجهة العظماء بأسمائهم ليـــست من عادة الكرماء ... وأما طريقة البعد فلكون المدعو له أمرا ثقيلا في نفـــسه وإن كان سهلا بتوفيقه »[(١)].

وفي قول القونوي: إن طريقة البعد[(٢)] لكون الأمر ثقيلا يؤيد كون نداء البعد تضمن تشريفا وإعلاء لمنـــزلة النبي عليه السلام، كما أنه يفيد أن المنادَى مطلوب منه أن يجتهد في الأمر. وإذا كان البيانيون قد جعلوا مثل هـــذا مـــن تنـــزيل المخاطب منـــزلة ذي الغفلة لتقصيره لعظم الأمر المدعو لـــه كـــأن

(١) حاشية القونوي١٥/٢٨٩-٢٩٠.

(٢) المقصود بطريقة البعد هو النداء بحرف (يا) الموضوع لنداء البعيد .

المنادَى غافل عنه مقصر لم يف حقه من السعي والاجتهاد الكلي؛ فإن هذا ليس لازما بل لا ينبغي أن يفسر به نداء النبي عليه السلام للأمر الثقيل، وإنما يحمل على معنى طلب الاجتهاد في الأمر دون النظر إلى ما قالوه من تنزيل للمخاطب منزلة الغافل المقصر. لأن هذا لا يليق بالنبي وبمنزلة النبوة. فحيث نودي عليه السلام بنداء البعد متبوعا بأمر عظيم فإن ذلك ذريعة لتعظيمه وأنه أهل لما كلف به، فالتشريف المفهوم من نداء البعد مقترن به تشريف آخر وهو عظم ما كلف به.

وعليه فإن نداء تشريف النبي عليه السلام بما ينادى به البعيد ينضم إليه أمران يؤكدان معنى التشريف، أحدهما: أن ينادى بنداء البعيد المؤذن بالتشريف عند ذكر مقامات النبوة وتكاليف الرسالة، والآخر: أن يُنادَى بصفات التعظيم دون التصريح بالاسم.

وهكذا يساق نداء التكريم بطريقة البعد في الخطاب المتضمن تعظيما للأمر الذي سيق له، وكأن عظم الخطاب التكليفي استدعى تهيئة المأمور بأن ينوه بشأنه بخطاب التكريم، كما في الأمر بالجهاد، إذ جاء في سياق ندائي استفتح بتكريم النبي عليه السلام وتشريفه بندائه بما ينادى به البعيد ثم سيق بعده الأمر بالجهاد، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التحريم:٩] وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِ﴾ [الأنفال:٦٥] فيتضح أن النداء في الآية اشتمل على نكتتين أولاهما تكريم النبي عليه السلام بترك النداء بالعَلَمية إلى النداء بالنبوة وذلك تكريم له، والأخرى: نداء البعد لأن الأمر المدعو له أمر عظيم. كما يتضح أن من أغراض النداء التنويه بصفة المنادَى، ولذا لم ينادَ عليه السلام باسمه العَلَمي في

القرآن كما بين أهل العلم وهو واضح من الاستقراء. وقول القونوي: « فإن مواجهة العظماء بأسمائهم ليست من عادة الكرماء » لا يعترض عليه نداء الأنبياء والرسل غير نبينا محمد في القرآن بأسمائهم لأن النداء بهاتين الصفتين-أعني الرسول والنبي- خصصتا في القرآن لمحمد عليه السلام، حتى لا يلتبس نداؤه بما يحكى من نداء غيره من الرسل والأنبياء، ولذا نودوا بأسمائهم العَلَمية. وذلك كله حكاية لنداء سابق على إنزال القرآن الكريم، والله أعلم.

ومن معاني التشريف والتكريم الملاطفة، فقد جاء ذلك في ندائه عليه السلام في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل:١]وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر:١] وابن عاشور يعد النداء في سورة المزمل من أغراض السورة، وهو مما يؤيد معنى التكريم بطريق الملاطفة ، فيقول: « الإشعار بملاطفة الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بندائه بوصفه بصفة تزمُّله »[1]. وذكر كذلك أن في النداء اعتناء بما سيلقى إلى المخاطب من كلام إذ يذكر أن « الأصل في النداء أن يكون باسم المنادَى العلم إذا كان معروفا عند المتكلم، فلا يعدل من الاسم العلم إلى غيره من وصف أو إضافة إلا لغرض يقصده البلغاء من تعظيم وتكريم نحو: (يا أيها النبي) »[2] . وهذا الغرض يجري في كل نداء نودي به النبي عليه السلام لأنه لا ينادى لغفلة أو انحطاط منزلة، وإنما هو من ملاطفة النبي عليه السلام تكريما له وتشريفا لمنزلته.

ونداء النبي بهذه الصفة التي يعظم بها قد يلمح فيه إشارة إلى أهمية ما يدعى إليه. فيكتسب الأمر خصوصية بسبب من نودي لأجله، إذ كان المنادَى حينئذ

(١) التحرير والتنوير٢٩/٢٥٤.

(٢) المصدر السابق.

هو النبي عليه السلام. كما في آيتي الحض على الجهاد. وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٩] ففي هذه الآيات افتتاح بنداء النبي عليه الصلاة والسلام "تنبيها على أن ما سيذكر بعد النداء له مزيد اختصاص به" [١]. وهكذا تكتسي الأمور مزيد تخصيص واهتمام إذا كانت مصدرة بنداء النبي عليه السلام وذلك لشرف المنادَى.

وإذا لمحنا الفرق بين الرسول والنبي كما بينه أهل العلم[٢] - وقد جمع نبينا محمد عليه الصلاة والسلام الصفتين كلتيهما - تبين لنا لِمَ نودي في موضعين بـــ(يا أيها الرسول) وفي سائر مواضع النداء نودي بـــ(يا أيها النبي)، فالنداء بصفة الرسالة يستدعي مقتضيات الرسالة من التبليغ بلا توان والدعوة بكل وسيلة، مع ما يستلزمه ذلك من الصبر على الأذى والتوكل على الله وهو العاصـــم من أذى الناس. ولذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧]ونظيره في نفس السورة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [المائدة:٤١] .بما ينبغي أن يصبر عليه من مقتضيات أداء الرسالة.

---

(١) المصدر السابق ٣١٥/٢١.

(٢) يفرق أهل العلم بين الرسول والنبي بأن "الرَّسُول هو من جَاءَ بشرع جديد إِلَى قـــوم كـــافرين، والنبي هو من بعث بشريعة رَسُول قبله ليجددها، ويحيي معالمها، فهذا مأمور بالبلاغ الجديد المستأنف لقوم كفار، وهذا مأمور بالبلاغ للمؤمنين الذين ينتمون إِلَى شريعة سابقة، ولكنهم غـــيروا وبـــدلوا وضلوا وانحرفوا" ، ينظر لذلك : فيض القدير شرح الجامع الــصغير لمحمـــد بـــن عبـــد الـــرؤوف المناوي١٥/١، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت.

وفي نداء الله لإبراهيم عليه السلام ما يُفهِم تشريف إبراهيم وتكريمه، إذ نودي وقد أسلم ابنه ليذبحه، وفي تلك اللحظة التي كان يُمرّ فيها الشفرة على نحر ابنه ليفعل ما رآه في المنام من أمر الله له بذبحه، يناديه الله إكراما له على صبره على هذا الابتلاء العظيم، وتبشيرا له بفداء ابنه من الذبح جزاء إحسانهما وطاعتهما، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٣-١٠٧] وفي سبق النداء بأن المفسرة ما يشبه صريح الخطاب، وإبراز اسم المنادَى للتنويه به في مقام الطاعة.

وجدال إبراهيم للملائكة في قوم لوط لم يحرمه من ثناء الله عليه وتعقيب ذلك بندائه له ليأمره تعالى بالإعراض عن الجدال في أمر غير مردود قضاؤه. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٤-٧٦].

قال القونوي: « النداء بصيغة البعد للتفخيم »[(١)]. وتفخيم ندائه عليه السلام تشريف له وتكريم من الله.

أما كليم الله موسى عليه السلام فقد ناداه الله في القرآن الكريم كثيرا، وكان نداء الله له في كثير من الآيات لتأنيسه واللطف به وإدخال الطمأنينة إلى نفسه، إذ كثيرا ما ترد الآيات يعقبها نداء الله له ليذهب عنه الروع، فمن ذلك أنه لما أفاق من صعقته بعد أن تجلى ربه للجبل، كان في غاية الخوف والوجل،

(١) حاشية القونوي ١٦/٣٠١.

فجاء النداء "للتأنيس وإزالة الروع" (١)، إذ يقول تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف:٤٤] وفي الآية ما يعمق معنى التكريم والتشريف وهو أن جملة الطلب التي غالبا ما تعقب النداء؛ تزكية لموسى وبشارة له باصطفاء الله له على الناس بأمرين عظيمين هما الرسالة وكلام الله له مشافهة.

ونظيره ما ورد من ندائه عليه السلام في غير ما آية من سورة طه، ولقد كان المعهود في النداء أن يتبع بأمر أو نحوه، إلا أن نداء الله لموسى في سورة طه يكاد يخلو من الأمر بل هو نداء للتقريب والتأنيس ولننظر إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [طه :١١-١٢] حيث كان كلام الله لموسى بغير واسطة من الملائكة، فنودي تهيئة لنفسه ولبه إلى الأمر العظيم الذي يعقب النداء وهو تكليم الله له.

ثم تليها آيات أخر في ذلك الموقف العظيم ويتكرر فيها النداء برغم قرب موسى من ربه وكلام الله له، إلا أن تلك النداءات كانت لتأنيس نفس موسى وإعداد قلبه لمطالب الاصطفاء. قال تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:١٧]، وقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:٣٦] وقوله تعالى: ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:٤٠]. كل هذه الآيات التي كلم الله فيها موسى وتخللها نداء مع قرب موسى من ربه لم تكن لبعد موسى أو غفلته، وإنما كانت لتأنيسه وتطييب فؤاده بعد أن قضى برهة من الدهر شريدا خائفا عائدا إلى من يخشى

---

(١) التحرير والتنوير٩/٩٥.

على نفسه منهم. وكذلك الآيات التي نودي فيها موسى عليه السلام في سورتي النمل والقصص كان النداء فيهما مفعما بالتأنيس والتقريب واللطف، وإزالة الروع وتطييب النفس[1] . ولا ريب أن الملاطفة أوضح حين يعلق الأمر بالنداء أو يقع خاتما لجملة الخطاب، وكل من اللطف والتأنيس يضرب في التكريم والتنويه بعطن.

وقد ذكر بعض البيانيين أن من أغراض نداء القريب بطريقة البعد " الحرص على إقبال المنادى، فصار إقبال المنادى كالبعيد لأن النفس إذا اشتد حرصها على الشيء صارت كل ساعة قبل وقوعه في غاية البعد فتقول يا غلام بادر بالماء فأنا عطشان" [2]. وجعل الدسوقي[3]من هذا القبيل قوله تعالى: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ﴾ [القصص:٣١] وفيه نظر إذ لا يتصور وصفه تعالى باشتداد الحرص وصيرورة النفس في غاية البعد، والله أعلم.

وفي ندائه تعالى لداود عليه السلام بيان لحصول العفو والرضاء من الله بعد مغفرته له ذنبه الذي ألم به، إذ عقَّب الإخبار بالمغفرة بنداء يشعر بالتكريم والتفضل، يؤيد ذلك الجملة الخبرية التابعة النداء المؤذنة ببشارة الاستخلاف في الأرض، على خلاف المعتاد من تعقيب النداء بجملة طلبية تكون أمرا في الغالب، كما قال تعالى : ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ [ص:٢٦]يضاف إلى ذلك ما يوحي به النداء المباشر الخالي من الحكاية، إذ ينتقل الحديث من حكاية ماضية إلى نداء يشبه استحضار صورة الموقف،

---

(١) ينظر لذلك الآيتان ٩و١٠ من سورة النمل، والآيتان ٣٠و٣١ من سورة القصص.

(٢) مواهب الفتاح (ضمن شروح التلخيص٢/٣٣٤).

(٣) ينظر لذلك حاشية الدسوقي (ضمن شروح التلخيص ٢/٣٣٤).

وكأن النداء واقع مسموع، وفي ذلك مزيد عناية بالنداء والمنادى، وتنبيه إلى فورية البشارة بعد المغفرة، وتوليته الملك بلا تراخ بينها وبين مغفرة الذنب.

وقد نادى الله كلمته عيسى بن مريم عليه السلام لإخباره بأنه متوفيه ورافعه عن كيد الذين يتربصون به ليقتلوه، والنداء معقب بخبر قبضه تعالى لروح عيسى ورفعه إليه،كما في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [آل عمران: ٥٥] قال الزمخشري: «ومعناه: إني عاصمك من أن يقتلك الكفار ومؤخر أجلك إلى أجل كتبته لك ومميتك حتف أنفك لا قتلا بأيديهم»[(١)]. ومن هذا يتبين أن النداء جاء توطئة لتكريم عيسى برفعه إلى الله، وصونه عن الكافرين، وتهيئة لنفسه لقبول خبر القبض.

ومن زيادة تشريف المنادى بالنداء؛ إضافة صفته تلك إلى الله تعالى، لأن العبودية أشرف صفة للمخلوق. كما في قوله تعالى:﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [العنكبوت:٥٦]واختيار صفة العبودية والتذكير بها يجعل الأمر المدعو إليه أكثر تعظيما، وذلك أن المخاطب خوطب بصفة تستلزم الإتيان بمضمون النداء . والملاحظ أن النداء بالأوصاف يوحي بتعليق الحكم المسوق لأجله النداء بتلك الأوصاف، وفي هذا تنبيه لعلة إيراد الوصف وإيثاره على غيره من أوصاف المنادى. وعلى الرغم من أن هذه الصفة – أعني العبودية – يتميز فيها المؤمن عن الكافر فقد شمل النداء بها الفريقين. إلا أنه يتضح تخصيص المؤمنين في النداء في الدنيا بقيد (الذين آمنوا)، والملاحظ أنه

(١) الكشاف ٤٣٣/١.

أخص من قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[البقرة:١٠٤].

وقد يكون حذف أداة النداء مما يوحي بقرب منزلة المنادى ويشعر بالتلطف له، كما في قوله تعالى:﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا ﴾ [الأحزاب:٣٣] فقوله: ﴿ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ ﴾ بغير أداة إشعار لخصوص منزلتهم وقربهم من الله وتكريمهم بما لم يكرم به غيرهم، وإن كان المنادى هنا محتملاً لأن يكون منصوباً على المدح، أو على الاختصاص، والاختصاص من النداء، إلا أن النداء اختاره الزمخشري وآثره على غيره، إذ لم يذكر من الوجوه المحتملة إلا النداء وذلك في قوله تعالى:﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود:٧٣] واعتبره القونوي أولى من النصب على المدح أو الاختصاص(١). فالنداء المحذوف الأداة يشعر بتكريم المنادى وتقريب منزلته والتلطف والاحتفاء به.

وبهذا يقل احتمال النداء في قوله تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء:٣] لعدم ظهور دواعي الاحتفاء بالمنادى إلا على وجه مرجوح، ويؤيد ذلك قراءة أبي عمرو(٢) في الآية التي قبلها ﴿ أَلَّا يَتَّخِذُوا ﴾ بالغيبة، فيكون انتصاب ﴿ ذُرِّيَّةَ ﴾ على إضمار "أعني". وقد ذهبت طائفة من أهل العلم إلى أن ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ

---

(١) ينظر لذلك حاشية القونوي ١٤٣/١٠.

(٢) كتاب الإقناع٢/٦٨٤.

أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ ﴾ [البقرة:٨٥] منادى محذوف منه حرف النداء(١). ويرجح استبعاد النداء السبب الآنف الذكر وهو انعدام ظهور دواعي الاحتفاء، يؤيد ذلك أن فريقا من أهل العلم منعوا تعري اسم الجنس واسم الإشارة من حرف النداء(٢). والله أعلم.

ومما يمكن أن يلحق بهذا الغرض- أعني ملاطفة المنادى – ما ورد في قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر:٩] على قراءة التخفيف، وقرأ بها نافع، وابن كثير، وحمزة، وغيرهم(٣)، وقد استحسن الفراء هذا الوجه، فقال: « قرأها يحيى بن وثاب بالتخفيف. وذكر ذلك عن نافع وحمزة وفسروها: يريد: "يا من" هو قانت. وهو وجه حسن، العرب تدعو بألف، كما يدعون بـ(يا) »(٤)، فإنه لما كان المنادى قانتا مداوما على القنوت كان قريبا من الله فناسب أن ينادى بحرف النداء المخصص للقريب. وإذ حملت الهمزة في هذه القراءة على أنها للاستفهام فلا نداء حينئذ.

ثالثا: النداء لعظم الأمر المدعو له:

ينادي الله سبحانه عباده تنبيهاً على عظم الأمر الذي نودوا من أجله،

(١) ينظر لذلك البيان في إعراب غريب القرآن لأبي البركات عبدالرحمن الأنباري ١/١٠١، بتحقيق بركات يوسف هبود، لم تحدد طبعته، دار الأرقم، بيروت. والتبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري١/٨٦، بتحقيق على محمد البجاوي، لم تحدد طبعته، مطبعة البابي الحلبي مصر. والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ١/٤٦٧، لم تحدد طبعته، المكتبة التجارية، مكة المكرمة. حاشية الصبان على شرح الأشموني٣/١٣٦، لم تحدد طبعته. مطبعة البابي الحلبي، مصر.

(٢) المصادر السابقة.

(٣) ينظر لذلك معاني القرآن للفراء٢/٤١٦.والقراءة بأن يخفف الإدغام في (من) .

(٤) المصدر السابق.(ومراده بالألف الهمزة).

والبيانيون يذكرون أن الأمر العظيم يدعى له المنادَى بأداة البعد إذا كان المنادَى غافلا أو ساهيا، أو أن الأمر الذي دعي له أمر عظيم يستوجب بذل غاية الجهد واستقصائه للوفاء بحق ذلك الأمر.

وقد نادى الله نوحا عليه السلام في كتابه لعظم الأمر الذي نودي من أجله وهو نهيه عن أن يسأله ما ليس له به علم، إذ أراد نوح أن يشفع لابنه، فقال تعالى: ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [هود:٤٦] ويتبين عظم الأمر الذي نودي نوح له بمعونة اختلاف وجه الخطاب من البناء للمفعول إلى استعمال الصيغة التي يحضر معها الفاعل في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ﴾ إذ سياق الأفعال قبل هذه الآية وبعدها جاءت كلها بصيغة البناء للمفعول، " قيل، وغيض ، وقضي، وقيل" في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود:٤٤-٤٨] إلا أن عتاب نوح انفرد بصيغة البناء للفاعل ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ﴾ ، وسط منظومة أفعال كلها بصيغة البناء للمفعول وذلك لهيبة الحضور، إظهارا لوجوب الانتهاء عن مثل هذا السؤال. مما يدل على أن النداء اختلف طريقه في هذه الآية عن الآيات السابقة واللاحقة، ولعل في مجيء

أفعال القصة بالبناء للمجهول إشارة إلى القضاء الكوني والأمر الأزلي الذي قضى به الله في الأزل من أمر الطوفان وما بعده باعتباره حدثا مفصليا في مسيرة البشرية.

ونلحظ في النداء الآخر- الذي هو من سياق قصة السفينة بعد رسوّها ثم هبوط نوح وحكاية ندائه بصيغة البناء للمفعول- استكمالا لسياق القصة التي بدأ تعاظم أحداثها من قوله : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ﴾ ، ولا يخفى ما بين النداءين إذ الأول في معرض معاتبة نوح عليه السلام والآخر في مقام الرضاء والبشرى بالنجاة والسلام. وواضح أن الاختلاف في صيغة الفعل بين البناء للفاعل والبناء للمفعول داخل سياق الأفعال أسهم في اختلاف مفاد النداءين والله أعلم.

وينادي الله المؤمنين بصفتهم التي يجب أن يكونوا عليها وهي الإيمان، وفي هذا النوع من النداء لمحة تكريم، وإيماء إلى فضيلة الصفة، وقد أشرنا إلى أن النداء بالصفة ناظر إلى ما في تلك الصفة من المقتضيات، مع عظم الأمر الذي نودوا له، فإذا خاطب الله عباده المؤمنين بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فإن وراء استحضار صفة الإيمان في ندائهم مقاصد تستوجب منهم العمل بما يقتضيه إيمانهم، ولذلك أتبع هذا النوع من النداء بالأوامر والنواهي والتوجيهات العظيمة، وقد نادى الله عباده المؤمنين بهذه الطريقة تسعين مرة في القرآن، وبقوله:﴿أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾[النور:٣١] مرة واحدة. وهو نداء في مجمله لبيان أوامر الله ونواهيه، تفهم من الجمل الطلبية التي تلي جملة النداء وهي داخلة في سياق النداء، سواء كانت طلبية حقيقة أو حكما، وهذا من

خصائص ورود النـداء على الجملة، إذ نجد أن الجملة بعد النـداء في مثل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾[البقرة:١٠٤] تشتمل على أمر أو نهي صريحين، أو تشتمل على ما يفهم منه أنه سيق مساق الأمر أو النهي وذلك لغلبة اقتران جملة الأمر أو النهي بالنداء في القرآن الكريم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة:١٨٣] فالأمر بالصيام وفرضه على المؤمنين مهّد له النداء الموجه للمؤمنين بما تقتضيه صفة الإيمان التي نودوا بها من المبادرة للإتيان بمضمون الأمر على الوجه الأكمل، وقد ذكر بعض أهل العلم أنه جيء بالنداء والخطاب "جبرا لكلفة المشقة بلذة المخاطبة "[(١)]. وإذا كان النداء غرضه الأول تعظيم شأن الأمر المدعو له فإن احتمال كونه لجبر كلفة المشقة لا يمتنع والنكات لا تتزاحم.

ومن صور نداء المؤمنين في القرآن أن يُنادوا بصفات أخص من صفة الإيمان وهي صفة العقل واللب، وقد جاء النداء عقب الجملة التي نودوا من أجلها، وهي طريقة أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة:١٧٩] وفي قوله تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[البقرة:١٩٧] وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[المائدة:١٠٠]وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ

(١) حاشية القونوي ٣/٥.

﴿إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾[الطلاق:١٠] وقال تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[الحشر:٢] إذ المعهود أن يتقدم النداءُ جملةَ الطلب وما في حكمها، إلا أنه في هذه الآيات جاء النداء عُقيب جملة الطلب، وهذه الطريقة وردت في القرآن الكريم في ست آيات يظهر أنه يراد بها تخصيص المنادَى بعد عموم، فنداء ذوي الألباب وقع في سياق الأمر بالتقوى، أو الترغيب فيها، فهو يشبه الاستدراك، أو يشبه البيان بعد الإبهام، إذ يساق الطلب وهو الأمر بالتقوى فيفهم منه عموم الأمر لكل مخاطب ثم يخصص الأمر في الخطاب بنداء أولى الألباب، وكأنهم هم المعنيون دون غيرهم على أن الحقيقة أن الأمر بالتقوى عام لكل مخاطب إلا أن مجيء النداء بعد ذلك الأمر يوحي بأن الأولى بالاستجابة للأمر بالتقوى هو من خصص بالخطاب بعد عموم، وفيه ثناء على من اتقى. ولعل ذلك يرجع إلى أن علة الأمر هي القضية الأولى للمنادى، قال النسفي: « أي يا ذوي العقول يعني أن قضية اللب تقوى الله، ومن لم يتقه من الألباء فكأنه لا لب له »[1].

ويتضح الفرق بين هذه الطريقة والطريقة السابقة، التي يستهل فيها الخطاب بالنداء، إذا علمنا أنه لو استُهِل الخطاب بالنداء من أول الأمر لكان توجيه النداء للمتقين دون من سواهم على معنى أن الأمر بالتقوى لم يوجه إلا لهم، إلا أنه لما جاء النداء بعد الأمر بالتقوى تبين أن الأمر بالتقوى عام وأن الاستجابة له والاتصاف به إنما هو لأولي الألباب، ثم إن في هذه الطريقة تعريضا بغير المتقين وهو أن من لم يستجب للأمر فليس من أولي الألباب. ولا يعكر على هذا أن يكون الأمر بالنداء مقترنا بالفاء الموحية بالتعليل لما قبلها

(١) مدارك التنـــزيل وحقائق التأويل١/١١٢ الطبعة الأولى١٤١٥هـ ، دار الكتب العلمية. بيروت.

المفهمة بأن الأمر بالتقوى مرتبطا بما قبله لأن العبرة في هذا بعموم اللفظ، والأمر بالتقوى ليس مقيدا بسببية ما قبله أي أنه ليس مسببا عن قضية سبقته كما في آية المائدة، لأن القضية السابقة للأمر بالتقوى هي واحدة من موجبات الأمر بالتقوى وليست علة وحيدة للأمر.

وبذلك يتضح أهمية طريقة البعد في نداء المعني بالخطاب، لأن الأمر الذي استدعى الخطاب بلغ من الأهمية أن يوجه للخاصة من المخاطبين، وأن يوصف المعنيُّ به بأنبل أوصاف من يمكن أن يوجه له الخطاب.

ومما كثر في القرآن من النداء لهذا الغرض؛ نداء الله للناس، إذ ورد في ستة عشر موضعا (1)، ولا ريب أن الناس المقصودين في النداء بالنظر إلى عموم دلالة الكلمة؛ يدخل فيهم البر والفاجر، إلا أن ذلك ليس على إطلاقه، ففي قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:21] يتوجه النداء إلى الناس جميعهم، المؤمن والكافر والمنافق، وغرضه تعظيم الأمر الذي نودوا له، فنزل عموم الناس منزلة الغافل الساهي، أو منزلة المقصر في الأمر، وكأن الآية تشير إلى المراد من الناس، وإلى الأمر الذي له خلقوا، ألا وهو أمر العبادة، وهو أعظم ما يطلب من الناس، ولأجل عبادة الله خلقوا، فنداء الناس في القرآن من أبرز النداءات التي يظهر فيها استعظام الأمر حتى كأن المنادى مقصر فيه.

وقد يكون المراد بالناس الكافرين دون غيرهم كما في قوله تعالى :

---

(1) في القرآن واحد وعشرون موضعا لنداء الناس، ومنها ما هو على لسان الرسل، وما يهمنا هنا هو نداء الله لهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ [الحج:٧٣] ويتلو نداء الناس بهذا الوصف أمر بعبادة أو حث على تقوى أو تحذير، أو تذكير بوعد الله، أو استدلال على عظمة الله(١). ولعل السر في اختيار النداء بعلم الجنس "الناس" دون التصريح بالصفة الحقيقة التي هي "الكفر "يا أيها الكافرون" هو ترك المواجهة بصفة سيئة لم تتهيأ نفوسهم لاستماعها، وهذا التعليل يؤيده أن النداء بـــقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ كان في الأغلب الأعم في المكي(٢) من السور، الموافق لبداية الدعوة المحمدية ونـــزول الوحي، قبل أن يرغب المؤمنون عن مكة مهاجرين إلى المدينة. وذلك بغرض استمالة قلوب الناس بألا يواجَهوا بما تكرهه نفوسهم من التسمية بالكفر. فخوطبوا بعموم ما يخاطب به سائر المدعوين للإسلام؛ استبقاء لفرصة إقبالهم على الإسلام، وفي هذه لفتة قرآنية عظيمة إذ لم يخاطبهم بصفة الكفر مع أنهم كافرون. و لم يَرد صريحُ لفظ الكفر في ندائهم إلا في قوله تعالى آمرا نبيه أن يخاطبهم: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ [الكافرون:١، ٢] وقد نودوا كذلك بصفة الجهل في قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ

---

(١) يضاف إلى الآيات السابقة، الآيات، ٢١ و١٦٨البقرة، ١و١٧٠و١٧٤مـــن ســـورة النـــساء، يونس٢٣و٥٧، الحج١و٥و٤٩و٧٣، لقمان٣٣، فاطر٣و٥و١٥، الحجرات١٣.

(٢) جاء في الكشاف: "عن إبراهيم بن علقمة أن كل شيء نـــزل فيه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فهو مكـــي، و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فهو مدني" ٢٢٤/١. غير أنه ورد نداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ في المـــدني، فربمـــا تكون السورة مدنية والآية مكية. غير أن الذي لا خلاف فيه أن الغالب في نداء الناس كان لمـــشركي مكة وإن شمل النداء غيرهم من الناس كالمؤمنين.كما في الآية ٢١ من سورة البقرة.

تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴾ [الزمر:٦٤] وإنما كانت الآيتان جوابا لما عرضه المشركون على النبي صلى الله عليه وسلم من عبادة أصنامهم عاما ويعبدون الله عاما، فلا يلحق بما ذكرناه من تجنب التصريح بصفة الكفر في ندائهم، وفي سبب نزول آية الزمر روي أنهم قالوا: « استلم بعض آلهتنا نؤمن بإلهك » (١). قال أبو حيان: « لما كان الأمر بعبادة غير الله لا يصدر إلا من غبي جاهل؛ ناداهم بالوصف المقتضي ذلك » (٢). ونجد في آية أخرى نداء لهم بوصف كفريّ، وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ﴾ [الواقعة:٥١،٥٢] فلم يُنادوا بالكفر بل بوصفين خاصين. فنداؤهم فيه معنى التخصيص، لكيلا يفهم أن الأكل من شجر الزقوم عام للمجموعين، فنودوا لتخصيصهم بأن هذا جزاؤهم وحدهم، دون سائر المجموعين. والملاحظ أن هذه الآيات الثلاث الأخيرة ليست نداء صريحا من الله بل هو نداءٌ أُمِر النبي عليه السلام أن يخاطبهم به.

وممن نودي بأداة البعد لبيان عظم ما نودي له؛ الجن، وقد ورد نداؤهم في القرآن حكاية لما سيكون في موقف الحشر، واستحضارا لتلك الصورة الفظيعة من التشهير بمجرميهم في عرصات القيامة(٣) لأن المستقبل فيما يخبر به تعالى في حكم الماضي، من جهة تحقق وقوعه، قال تعالى:﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ ﴾ [الأنعام:١٢٨] وقرن نداءهم بنداء الإنس في

---

(١) البحر المحيط ٩/٢١٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ذكر السعد وفريق من البيانيين أن استحضار الصورة لا يتوقف على الماضي بل قد يقع استحضار الصورة المستقبلة، ينظر لذلك: المطول١٧٢.

موضعين، والملاحظ أنه يُقدَّم الجنُ في مواضع نداء و يُقدَّم الإنسُ في مواضع نداء أخرى، قال تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ ﴾ [الأنعام:١٣٠] وقال تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾ [الرحمن:٣٣] ولعل تقديم الجن في النداء في الآيتين يوحي بأهم الأجدر بالتنبه إلى مضمون النداء، ولأن استجابة الإنس أفضل وأسرع من استجابة الجن. ولا غرو فإن النبوة في الإنس، وإبليس من الجن.

وباستقراء مواطن ورود اسميهما مقترنين بطريقة العطف بالواو مساواة لهما في الإسناد في القرآن الكريم في غير النداء [(١)] نلحظ أنه يغلب تقديم الجن على الإنس في مواطن الضلال والعذاب، وتقديم الإنس في مواطن الطاعة والرحمة، وهو مما يدعم القول بأن الجن قدموا في النداء لفضل حاجتهم إلى الإبلاغ أكثر من الإنس، وكأن الجن هم الأحق بالتنبيه من الغفلة والإرشاد إلى عظم الأمر الذي دعوا من أجله. و الله أعلم.

---

(١) ينظر لذلك الآيات: (١١٢ الأنعام، ٣٨ الأعراف، ١٧٩الأعراف، ٨٨ الإسراء، ١٧ النمل، ٢٥ فصلت، ٢٩ فصلت، ١٨ الأحقاف، ٥٦ الذاريات، ٣٩ و٥٦و٧٤الرحمن، ٥ الجن). ففي سورة الأعراف قدم الإنس على الجن في مقام بيان عداوة الإنس والجن للأنبياء ولكن جعل الإنس مضافا إليه وصف (شياطين) ليتبين أثر الشياطين في إضلالهم، وفي سورة الرحمن قدم الإنس في وصف بعض أحوال أهل الجنة، وفي سورة الجن قدم الإنس في مقام التزكية وأما باقي الآيات فقد قدم فيها الجن على ما ذكرناه عدا آية النمل إذ قدم فيها الجن على الإنس في غير مقام العذاب والضلال، ولكنه في مقام الإخضاع والقهر لأنهم أقوى من الإنس فقدموا لبيان ضعفهم وحقارتهم أمام قدرة الله. والله أعلم.

ومما هو كالشائع في النداء المراد به تعظيم الأمر المنادى لـــه، أن ينـــادى المخاطب بصفة تتعلق بمضمون الأمر الذي سيق له الخطاب، بعد أن ينـــــزل منـــزلة البعيد تأكيدا لعظم الأمر المستوجب للخطاب، وقد تبين فيما ســـبق من نداء الله لنبيه محمد عليه السلام أن النداء بالصفة دون العلميـــة يتـــضمن إشارة إلى ما في الصفة من معنى يتصل بما سيق له النداء من أمـــر أو نهـــي أو نحوهما. وهذه الطريقة تنطوي على مبعث الاستجابة وإقبـــال المـــدعو علـــى الداعي بكل قلبه ووعيه.

ولو نظرنا إلى نداء الله تعالى للبشر في القرآن بوصفهم أبناءً لآدم؛ لرأينا كيف ينطوي النداء على مضامين تتعلق بما في بني آدم من صفات أبيهم، واحتمال وقوعهم فيما وقع فيه أبوهم. فقد أخرج الله سبحانه آدم عليه السلام من الجنة بسبب معصيته لربه وإزلال الشيطان له، فكان من عواقب ذلك أن بدت له ولزوجه سوآتهما، وكانت سنة في بني آدم. والتنبيه إلى خطر هذا الأمر يجعل المخاطب بهذا الأمر كالساهي أو الغافل الذي يخاطب بالنداء. والقرآن الكريم في تحذيره لبني آدم يشير إلى مكيدة الشيطان لهم، وفي سورة الأعراف وردت قصة إخراج آدم عليه السلام من الجنة ، ثم جاء التحذير منه تعالى في أربع آيات متقاربات من نفس السورة نودي فيها الإنسان بصفته ابنا لآدم، ثم يتلو النداء أمر وتحذير وامتنان، قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ ﴾ [الأعراف:٢٦]نودوا بهذه الصفة للتنبيه إلى ما كان من أبيهم حين أطاع الشيطان ونزع لباسه عنه، ففي الآية امتنان بما ستر الله به عورة بني آدم، واستهلال الامتنان والتنبيه بالنداء فيه

إشارة إلى قصة أبيهم مع إبليس وتحذير لهم من مكائده، لتأتي بعد ذلك الآية الأخرى مكررة للنداء ومحذرة من فتنة الشيطان، قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ ﴾ [الأعراف:٢٧] ثم يتكرر النداء ثالثة بتلك الصفة المؤذنة بما يهيئ للأمر المسوق خلف النداء، وهم على ذكر من قصة أبيهم، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [الأعراف:٣١] وكان النداء الرابع ليذكرهم بأن الرسل ورسالاتهم جاءت بإذن الله بعد خروج آدم من الجنة وامتحان الله لذريته بفتنة الشيطان في الدنيا، واختبارهم برسالات الأنبياء ليتبين من يستحق الجنة مما ليس أهلا لها. قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [الأعراف:٣٥] كل هذه النداءات المتتالية منبثقة من سياق إخراج آدم من الجنة، فلما أريد تحذير أبنائه من الشيطان المتسبب في هذا الخروج نودوا بصفتهم بنين له، ليكون ذلك أوقع في قلوبهم عند تحذيرهم من الشيطان، وعند دعوتهم لاتباع هدي الرسل.

وقد بين ابن عاشور أن من فوائد النداء بعنوان "بني آدم" في خطابهم استثارة الحميَّة في نفوسهم للثأر ممن عادى أبيهم، والاحتراس من مكائده. قال: « ابتُدئ الخطاب بالنداء ليقع إقبالهم على ما بعده بشراشر قلوبهم، وكان لاختيار استحضارهم عند الخطاب بعنوان بني آدم مرتين وقع عجيب، بعد الفراغ من ذكر قصة خلق آدم وما لقيه من وسوسة الشيطان: وذلك أن شأن الذرية أن تثأر لآبائها، وتعادي عدوهم، وتحترس من الوقوع في

شركه »[1]. وهذا المعنى داخل في أهمية الأمر الذي نودوا من أجله.

ويظهر في نــداء الله لأهل الكتاب أنه جاء في كثير من المواضع في مقام المحاجَّة والمجادلة لتبكيتهم والتسجيل عليهم، إذ نرى نــداءهم في ســورة آل عمران يتصدر سياق جمل استفهامية غرضها التعجب والإنكار عليهم إنكاراً توبيخياً، وهذه الأغراض المتعلقة بالجملة الاستفهامية لا تخرج غرض النــداء الأصلي عن عظم الأمر الذي دعوا له لأن نداء القرآن لهم كــان في معــرض دعوهم للإسلام.

ولنتأمل قوله تعــالى:﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾[آل عمران:٦٥] قال أبــو حيــان: «معنى الاستفهام الإنكار »[2] وفي قوله تعــالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾[آل.عمران:٧١،٧٠] " أنكر عليهم كفرهم بآيات الله وهم يشهدون أنها آيات الله "[3]. وقوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾[آل عمــران:٩٨-٩٩] قــال القونــوي: «والاستفهام في الموضعين لإنكار الواقع وهو التوبيخ والتقريع »[4].

---

(١) التحرير والتنوير٩/٧٣.

(٢) البحر المحيط ٣/١٩٧.

(٣) المصدر السابق٣/٢٠٦.

(٤) حاشية القونوي ٦/٢٤٩.

وهذه الآيات المصدرة بالنداء متلواً بالاستفهام يتضح أن للاستفهام الوارد فيها غرضا عاما هو التوبيخ والإنكار والتقريع، كما هو واضح في كلام أهل العلم. وإذا كان الغرض الأول من نداء أهل الكتاب في هذه الآيات هو دعوتهم للإسلام، فإن من أغراض تخصيص ندائهم بـ(أهل الكتاب) - دون غيره مما يتصفون به كالكفر والنسب[1] والعبودية والإنسية - التنبيه على مخالفتهم لما في الكتاب الذي يُنسَبُون إليه حين يجادلون النبي عليه السلام، مع ادعائهم أنهم مستمسكون به وأنهم على حق، وقد جاء القرآن ليهيمن على ما في كتابهم من حق فكيف يجادلون فيه بالباطل، ومن هنا كانت الآيات متضمنة استفهامات موجهة إليهم لتوبخهم وتنكر عليهم أباطيلهم وما يزعمون، ويرفد هذه المعاني تصدير سياقاتها بالتعريض المفهوم من النداء بقوله: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾؛ لأنهم يعلمون أن في كتابهم ما يصدق محمدا عليه السلام ورسالته. كما أن في طريقة البعد إيذانا بأهمية وعظم الأمر الذي نودوا له.

وتخصيص أهل الكتاب في مخاطبتهم بالنداء ودحض حجتهم يوحي ببطلان ما لدى من سواهم ممن ليس لهم كتاب ولا أثارة من علم وثنيين وغيرهم، وقد كانت العرب تعظم ما لدى أهل الكتاب من علم، فإبطال ما عند أهل الكتاب يخبر بطريق الكناية عن بطلان ما سواه، وللنداء مدخل في هذا الوجه، قال أبو حيان: « تخصيص أهل الكتاب بالذكر دون سائر الكفار لأنهم هم المخاطبون في صدر هذه الآية المورد الدلائل عليهم من التوراة والإنجيل على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، والمجابون عن شبههم في ذلك، ولأن معرفتهم بآيات الله أقوى لتقدم اعترافهم بالتوحيد وأصل النبوة ، ولمعرفتهم بما في كتبهم

---

(١) المقصود بندائهم بالنسب أن ينادوا بـ(يا بني آدم)، أو (يا بني إسرائيل).

من الشهادة للرسول والبشارة به ›› (١).

ومن اللافت أن نداء أهل الكتاب في القرآن جاء كله على هذه الطريقة، عدا آية واحدة جاءت بقوله :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم ﴾[النساء:٤٧]والمتأمل يرى فرقا بين الاستعمالين، إذ جاء نداؤهم بـ(يا أهل الكتاب) في آيات المجادلة والمحاجة، وتفنيد أباطيلهم، فكان القرآن يخاطبهم بأهل الكتاب وفي إضافتهم إلى الكتاب معنى غير المعنى المفهوم من وصفهم بأنهم أوتوا الكتاب، ذلك أن آيات المحاجة والمجادلة فيها إمهال لهم وإرخاء للعنان بنسبتهم إلى علم الكتاب فأضيفوا إليه على اعتبار المعنى الملحوظ في الإضافة وهو معنى شبه الملكية فإرخاء العنان لهم بوصفهم أهلا لحمل الكتاب والمجادلة والمحاجة به. فلما انقطع جدالهم ودحضت حجتهم؛ جاء إلزامهم بالإيمان في سورة النساء -وهي نزلت بعد آل عمران(٢)- في قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾[النساء:٤٧] وهو إلزام لا يناسبه وصفهم بعلم الكتاب وأهليته، فتركت

(١) البحر المحيط٣/٢٧٩.

(٢) جزم كثير من أهل العلم بأن سورة النساء مدنية، وأن سورة آل عمران نزلت قبلها، ولهم في ذلك أدلة قاطعة منها حديث عائشة رضي الله عنها، الذي في بالبخاري: ‹‹ ما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده صلى الله عليه وسلم ›› ، ينظر:فتح الباري ٨/٢٣٧ للحافظ ابن حجر، بتحقيق الشيخ عبد العزيز ابن باز وآخرين، الطبعة الأولى١٤١٠هـ، دار الباز، مكة المكرمة . وبناؤه عليها صلى الله عليه وسلم كان بعد الهجرة اتفاقا، قاله الألوسي (ينظر تفسير روح المعاني ٤/١٧٨)، ونقل ابن عاشور عن الجمهور أن النساء نزلت بعد آل عمران (ينظر التحرير والتنوير ٤/٢١١).

الإضافة إلى الموصول، ليظهر معنى أليق بالمراد وهو أنهم لم يتمسكوا بما في الكتاب، وإنما هم أوتوه ثم لم يحملوا علمه. ويعضده قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة:٥].

وفي الآيات السابقة نرى نداء أهل الكتاب في مقام المحاجة والمجادلة لدعوتهم إلى الإسلام. أما نداؤهم باسم بني إسرائيل- وهو داخل في النداء لعظم الأمر- فلم يرد إلا في مقام الامتنان وتذكيرهم بنعمة الله عليهم وإنجائهم من آل فرعون؛ ليكون أدعى لاستجابتهم لأمر الله فيتبعوا ما جاء به محمد عليه السلام. وقد يلحظ مجيء هذا النداء متلواً بذكر تلك المنة، إذ ورد ذلك في ثلاث آيات بلفظ واحد: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾[البقرة:٤٠] ومثلها الآيتان (٤٧و١٢٢) من نفس السورة، وفي سورة طه ذكر الامتنان بالإنجاء صراحة: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴾[طه:٨٠] هذه الآيات لم ينادِ الله بني إسرائيل في سواها من القرآن، وما ورد نداء لهم فهو من عيسى عليه السلام. ثم إن نداءهم جاء في مقام الامتنان عليهم. وإسرائيل – كما ذكر أهل العلم – لقب يعقوب عليه السلام، وهو " علم يشعر بمدح وإن كان باعتبار معناه الأصلي لأن معناه في الأصل: صفوة الله أي مختار الله أو عبد الله وهما باعتبار معنى الإضافة يدلان على شرف عظيم"(١). وحين ينادي القرآن ذرية يعقوب بإضافتهم إلى صفة شرف بها أبوهم فإنه يومئ إلى فضيلة

(١) حاشية القونوي٣/٢١٨.

الاقتداء التي حث عليها القرآن، وإلى وجوب ذلك عليهم، فإن من كانوا أبناء لمن اصطفاه الله وجب عليهم ألا يحيدوا عن ملة أبيهم. يضاف إلى ذلك ما في سياق الآية من ذكر إنجائهم من آل فرعون وتبويئهم خير مبوّأ، وفي ذلك شروع في إبراز موارد المنة عليهم، والتنويه بها في معرض دعوتهم إلى الخضوع لما جاء به النبي محمد عليه السلام مما هو حق يعلمونه، ولا يخفى كذلك ما في النداء بطريقة البعد من تنزيلهم منْزلة الساهي أو الغافل لعظم الأمر الذي دعوا له فإنهم مدعوون لاتباع الحق الذي جاء به النبي عليه السلام، وإلى الاقتداء بأبيهم في اتباع الهدى حيث كان، وإلى شكر نعمة الله عليهم بأن يطيعوا أمره الموجه لهم على لسان محمد عليه الصلاة والسلام.

القسم الثاني: النداء من الخلق

في كتاب الله الكريم آيات تحكي كلام الخلق، ومن ذلك ما يجري من ندائهم لخالقهم أو نداء بعضهم بعضا. ونداء الخلق في القرآن ورد على وجهي الحقيقة والمجاز، ولكلٍ أغراضه التي سيق من أجلها، وسوف يكون حديثنا عن هذا النوع من النداء وفقا لأغراضه، وحقيق أن نبدأ بالحديث عن الاستعمال الحقيقي في نداء الخلق، وذلك حين يكون النداء باستعمال أداة النداء (يا) على أصلها في نداء البعيد.

أولا:النداء لتعظيم المنادى :

لعل أبرز نداء للإنسان في القرآن هو نداؤه لخالقه وبارئه، وذاك ما يكثر في الدعاء إذ يُصدّر بالنداء غالبا، أو يرد في سياق الدعاء نداءً لله، ولقد كثر نداء الخلق لله بصفة الربوبية، وغلب غلبة واضحة في آي القرآن الكريم حتى يلاحظ التلازم بين الدعاء ونداء الرب، بل ربما كان النداء نفسه (يا رب) دعاء وتضرعا وخضوعا وتذللا بين يدي الله. وهذا النوع من النداء حقه أن يستعمل فيه أداة النداء (يا) التي ينادى بها البعيد وذلك أن المنادَى هنا عالٍ على خلقه بائن منهم. وإذا ما تتبعنا الآي الكريم التي نادى فيها العبد ربه وجدنا النداء عاريا عن الحرف الذي لازم المنادى في كثير من وجوه النداء. غير أن الأداة لم يكن غيابها إلا لغرض مع أنها قائمة في التقدير ملاحظة في المعنى. فقد تكون العلة في حذفها هنا هو ما أشرنا إليه من قبل وهو أن المنادِي حين يستشعر قرب المنادَى فإنه يخاطبه بطريقة القرب، فإذا علمنا أن المولى عز وجل بائن من خلقه عال فوق عرشه، فإن حق ندائه تعالى من خلقه

أن يكون بطريقة البعد، تعظيما لمنـزلته سبحانه، وإظهارا لحقارة النفس أن تصل إلى منـزلة القرب منه جل وعلا. غير أن المنادِي بطمعه فيما عند ربه، وحسن ظنه به، وبتعاظم رغبته في الإجابة، يستشعر رحمة الله وحبه لإلحاح العبد في الدعاء، وربما كان للمناجاة في الدعاء لذة واستعذاب لا يضاهيها سواها من التعبد والتذلل حتى وصف الدعاء بأنه مخ العبادة أو كما في الحديث الصحيح: «**الدعاء هو العبادة**»[(1)]. لأنه محل الإخلاص والصدق، وبه تأنس النفس وتسكن حين تختلج وتضطرب، ولذلك فإن أكثر ما يقع من الإنسان وقت الضر والكرب الدعاء. ومن هنا كان الدعاء من العبد لربه مصدَّرا بنداء يستشعر فيه العبد القرب ثقة بربه. ثم إن القرآن الكريم قد بين أن الله قريب من الداعي قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦] وإذا علمنا أن دعاء العبد ربه في القرآن لم يرد إلا بحذف حرف النداء مع ثبوت حرف النداء في مثل ذلك في غير القرآن كما في الحديث الصحيح ، وكما هو معلوم أن قول: (يا رب) ليس ممتنعا؛ ظهر لنا بقوة احتمال أن يكون اقتصار القرآن على حكاية الدعاء عن العباد بما حذف فيه الحرف راجعا إلى إرادة تعليم الله لخلقه كيف يكون الدعاء، أو كيف هي الطريقة الأَولى في دعاء العبد لربه. هذا كله وجه قوي وغرض لا شك في أهميته.

غير أن هناك غرضاً لطيفاً أشار إليه الكرماني نرى أنه أقرب وأعجب ألا وهو قوله: «كثرة حذف (يا) في القرآن من الرب تنـزيهاً وتعظيماً، لأن

(١) أخرجه الترمذي في السنن ٤٢٦/٥. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ٦٤١/١، الطبعة الثالثة١٤٠٦هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

في النداء طرفاً من الأمر، إذا قلت: يا زيد افعل واصنع»[1]، وهو وجه لطيف يُعدُّ من أغراض حذف حرف النداء عند دعاء العبد لربه، يؤكد ذلك لنا أن العبد مطالب بتعظيم الله عند سؤاله حاجته، فالنداء في ذاته ليس دعاءً، إنما الدعاء هو جملة الطلب التابعة للنداء، فمن تعظيم الله نداؤه بما يشعر أنه قريب مجيب. وبذا يمكن القول أن حذف حرف النداء هنا أريد به تعظيم المنادى لكيلا يواجه بكلام صورته صورة الأمر.

وقد يقال لِمَ لمْ يُستعمل حرف النداء المختص بالقرب الذي هو الهمزة؟ والجواب على ذلك أن المدعو هنا عظيم القدر عال المقام فنداؤه لا يكون إلا بالحرف المخصص للبعد، لكنه حذف من الكلام للغرض المذكور، أما النداء بالهمزة فلا يناسب مقام التفخيم والتعظيم الذي يليق بالله عند دعاء العبد له.

وبالنظر في آي القرآن الكريم المشتملة على دعاء العبد لربه، نجد لفظ (ربِّ) ورد بصيغة الإضافة إلى (يا) المتكلم،وغلب عليه حذف الياء وبقاء الكسر تخفيفاً، وهو كثير شائع. وورد بصيغة الإضافة إلى ضمير (نا) المتكلمين. وهذا هو شأن الدعاء في القرآن الكريم مُصدَّراً بنداء الرب، عاريا من حرف النداء، و لم يخرج عن ذلك إلا آيتان هما قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾ [الفرقان:٣٠] وقوله تعالى: ﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الزخرف:٨٨] وقد وردتا في مقام التشكي والتبرؤ من سيء الأعمال. قال ابن عاشور عن الآيتين: « وهذا من استعمال الخبر في

(١) غرائب التفسير وعجائب التأويل لمحمود بن حمزة الكرماني١/٤٠٠، تحقيق شمران العجلي، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، دار القبلة، جدة.

التحسر والشكاية، وهو خبر بمعنى الإنشاء»[1]. وهـذا لا يعـني أن نـداء الشكوى لا يرد إلا مع (يا) النداء ففي قولـه تعالى: حكاية عن امرأة عمران: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ [آل عمران: ٣٦] نوع من الشكوى وإظهار الحزن إذ هو في معنى: لِمَ جاء المولود أنثى؟ و لم يكن كما تمنته ذكرا.

كذلك فإن الدعاء بأسماء الله الحسنى بغير لفظ (رب)، جاء خاليا من حرف النداء في مثل قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦] وقوله تعالى: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [يوسف:١٠١] فالتقدير : يا مالك الملك، ويا فاطر السموات " وانتصاب مالك الملك على أنه منادى ثانٍ أي (يا مالك الملك)، ولا يوصف (اللهم) عند سيبويه "[2]. وكله جارٍ على ما ذكرناه من تعظيم المنادى وتنـزيهه، ومن استشعار القرب والطمع في الرحمة والإجابة. وهو مما يراعي فيه الداعي مناسبة الاسم المدعو به لحاجته هو، وهذه الآية فيها تعليم للعباد كيف يدعون ربهم فقد جيء باسم مالك الملك حينما كان الدعاء يتعلق بإيتاء الملك ونزعه من الناس، لأن العبد حينما يدعو لأمر فإنه يستحضر في نفسه صفة من صفات الله أو اسما من أسمائه تعالى تناسب حاجته التي دعا إليها، وكذا قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟

(١) التحرير والتنوير٢٥/٢٧٢.

(٢) البحر المحيط٣/٨٥.

فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ [الزمر:٤٦] فيه تعليم لطريقة الدعاء ومناسبة اسمه تعالى للأمر المدعو لأجله، ولذلك فإن هاتين الآيتين سبقهما أمر من الله تعالى وهو "قل"، أي ادع بهذا الدعاء، ولم يعقبه أمر مدعو له فعلم أنه تعليم لطريقة الدعاء وتخيُّر الأسماء الحسنى المناسبة للحاجة.

وفي اختيار الرب في الدعاء دون غيره نكتة هي الإقرار بالعبودية واستحضار استحقاق الله للألوهية، لأن من استحق صفة الربوبية استحق صفة الألوهية ومقتضياتها من التوحيد والإفراد بالعبادة ففي الدعاء بالرب استجماع لكل معاني العبودية، قال الرازي: « من أرضى الدعاء أن ينادي العبد ربه بقوله: (يارب) »(١). ولهذا المعنى فإنه لما كان المشركون مرتابين في أمر محمد عليه الصلاة والسلام، منكرين لحق الألوهية لم يرد في دعائهم (يارب) وإنما قالوا: ﴿ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنفال:٣٢] وليس في القرآن دعاء بقول: (اللهم) إلا وهو مقترن باسم آخر من أسماء الله عدا هذه الآية، ولعل السر في ذلك هو المعنى الذي ذكرناه وهو أن الدعاء كان من غير المؤمنين.

ومن تعظيم المنادى أن يخاطب الابن أباه بمنطق الطاعة والخضوع، كما في نداء إسماعيل لأبيه بطريقة التعظيم وذلك بتنزيله منزلة البعيد، في قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[الصافات:١٠٢] فتعظيمه لأبيه بطريقة النداء

(١) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، للإمام فخر الدين الرازي٣١/٢٧ الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، دار الكتب العلمية. بيروت

إنما هو إبلاغ لأبيه بصدق طاعته وتمام انقياده لأمر أبيه، حتى يزيل ما في نفس أبيه مما يوهم رغبته عن المضي في تنفيذ أمر الله، والتعظيم هنا تبيَّن بطريق الكناية إذ إن طاعة الابن واستجابته لازمان لتعظيم أبيه، وفي الآية إمعان في إظهار الطاعة حيث قال: ﴿ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ ﴾ ولم يقل: "افعل ما ترى"، وهو من كمال الطاعة وإخلاص الصدق في الاستجابة، إذ جعل مجرد رؤيا أبيه أمرا لا محيد عن فعله.

ثانيا: النداء لعظم الأمر المنادى له:

من أعظم ما خوطب به الإنسان في الكتاب الكريم عبادة الله وتوحيده، وهو أمر عظيم يظهر جلالة قدره في كثرة ورود النداء في سياقه، ويظهر ذلك جليا في نداء الأنبياء لأممهم، فقد نادى الرسل أقوامهم بطريقة البعد: "يا قومِ " المفيدة لعظم الأمر الذي نودوا له، لأن أولئك المدعوين في حكم الساهي الغافل عما كلفوا به. ورد ذلك على لسان نوح وإبراهيم وصالح وشعيب وموسى عليهم السلام، إذ يدعون أقوامهم بهذه الطريقة تنزيلا لهم منزلة الغافلين لأن الأمر الذي نودوا له بلغ من علو الشأن إلى حيث إنهم لم يفوا بما هو حقه من السعي فيه، وهو عبادة الله.

وعلى ألسنة أولئك الأنبياء جميعهم جاء قوله تعالى: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾[1]. ومن ذلك ما حكاه القرآن عن نوح عليه السلام في ندائه لقومه: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾[الأعراف:٥٩] ويتكرر هذا النداء من الأنبياء إذ يحكيه

(١) ورد هذا اللفظ في ستة عشر موضعا من القرآن الكريم.

عنهم القرآن في سورة الأنعام وسورة الأعراف وسورة هود، وبتأمل هذا النداء يظهر أنه لم يُنادَ به قوم إلا عذبهم الله قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبة:٧٠] (١)، فهو نداء بين يدي عذاب الله، مما يؤكد أن طريقة النداء هنا جاءت للتنبيه إلى عظم الأمر الذي دُعوا من أجله. وقد صَدر هذا النداء من صالح آل فرعون وكان عاقبة قومه العذاب، ولا ريب أن موسى أنذرهم إلا أنه لم ينادهم بطريقة (يا قوم) لأن فرعون وقومه لم يكونوا قوم موسى عليه السلام نسبا. بيد أن هارون عليه السلام نادى بني إسرائيل بهذه الصفة عند اتخاذهم العجل ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ [طه:٩٠] وهو من الرفق بهم لغرض استمالة قلوبهم للاستجابة إلى الأمر العظيم وهو عبادة الله وترك عبادة العجل، حيث كان النداء منـزلا لهم منـزلة الغافل أو الساهي عن عظيم الأمر الذي تركوه إلى غيره.

ومن الملاحظ أن النداء المراد به التنبيه إلى عظم الأمر كثيرا ما يتضمن تلطفا ورفقا بالمنادى، ولذا نرى الأنبياء يدعون أقوامهم بما يشعر بالقرابة التي

---

(١) قال الرازي: « أولهم قوم نوح والله أهلكهم بالإغراق، وثانيهم عاد الله تعالى أهلكهم بإرسال الريح العقيم عليهم، وثالثهم: ثمود والله أهلكهم بإرسال الصيحة والصاعقة عليهم، ورابعهم: قوم إبراهيم أهلكهم الله بسبب سل بالنعمة عنهم... وخامسهم قوم شعيب وهم أصحاب مدين أهلكهم الله بعذاب يوم الظلة، والمؤتفكات قوم لوط أهلكهم ا لله بأن جعل عالي أرضهم سافلها »، ينظر لذلك التفسير الكبير١٦/ ١٠٣.

تربطهم بهم، وذلك بإضافة لفظ قوم إلى ضمير النبي لتقريب نفوسهم و"لتذكيرهم بآصرة القرابة، ليتحققوا أنه ناصح ومريد خيرهم ومشفق عليهم، وأضاف (القوم) إلى ضميره للتحبيب والترقيق لاستجلاب اهتدائهم". (١)

ونظير ذلك ما ورد في دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم:٤٢] فإنه نادى أباه بقوله: (يا أبت) لما في ذلك من التلطف واستمالة النفس كما بين ذلك فريق من المفسرين(٢) قال البيضاوي: « وإنما تذكر[يا أبت] للاستعطاف ولذلك كررها » (٣). وهو من الإطناب الذي يقتضيه مقام الدعوة واستمالة النفس الجانحة عن الحق. وينقل ابن عاشور عن جده قوله: « في النداء بقوله: (يا أبت) أربع مرات تكرير اقتضاه مقام استنـــزاله إلى قبول الموعظة لأنها مقام إطناب. ونظَّر ذلك بتكرير لقمان قوله: (يابني) ثلاث مرات،قال: بخلاف قول نوح لابنه: (يا بني اركب معنا) مرة واحدة دون تكرير لأن ضيق المقام يقتضي الإيجاز وهذا من طريق الإعجاز » (٤). وفيما ذكره أيضا إشارة إلى نداء لقمان لابنه في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣] وذكر عند هذه الآية أن "افتتاح الموعظة بنداء المخاطب الموعوظ مع أن توجيه الخطاب مغنٍ عن ندائه لحضوره بالخطاب، فالنداء مستعمل مجازا في طلب حضور الذهن لوعي الكلام وذلك

(١) التحرير والتنوير ١٨٨/٨.

(٢) ينظر لذلك أنوار التنـــزيل /٣٢. وحاشية الشهاب١٦٠/٦، وحاشية القونوي٢٣٧/١٢.

(٣) أنوار التنـــزيل ٣٢/٢، وقد تكرر ذكر (يا أبت) في الآيات٤٣و٤٤و٤٥ من سورة مريم.

(٤) التحرير والتنوير١١٤/١٦.

من الاهتمام بالغرض المسوق له الكلام" [١]. فالنداء هنا استعمل مجازا لأن المخاطب قريب إلا أن أهمية الأمر وعظمه تدعو إلى إحضار الذهن وتمام الوعي. فالجملة الندائية في هذا النوع من النداء تحمل غرضين، أحدهما: مبناه على الاستعمال المجازي حيث خوطب القريب بندائه مع أنه يكفي في إبلاغه خطاب خال من النداء، وذلك للتنبيه على عظم الأمر وأهميته وأنه بحيث يتوجب على المنادى أن يرعيه سمعه وأن يُحضر له وعيه. والغرض الثاني: هو التلطف والشفقة بأن يُنادى المنادَى بصفة تستميل نفسه. وفي نداء لقمان لابنه بطريقة التصغير: (يا بُني) مراعاة لمسألة التلطف "وهو تصغير إشفاق"[٢]. والذي يظهر أن ابن لقمان كان يافعاً لأن خطابه بالتكاليف لا يناسبه صغر سنه، فعُلم أن تصغيره للتلطف ولذا قال ابن عاشور: « التصغير فيه لتنـــزيل المخاطب الكبير منـــزلة الصغير كناية عن الشفقة به والتحبب له، وهو في مقام الموعظة والنصيحة إيماء وكناية عن إمحاض النصح وحب الخير، ففيه حث على الامتثال والطاعة »[٣]. وفي هذا النداء يبرز غرض التنبيه على صفة المنادى ضمن الغرض الأكبر وهو التنبيه على عظم الأمر المنادى له، لأن الخطاب بالنداء غرضه تنـــزيل المنادى منـــزلة البعيد ليوحي ذلك بأهمية وعظم الأمر المنادى له، لأنه كالغافل الساهي عنه ، ثم اختيار صفة من صفات المنادى دون غيرها.

وبهذا الخطاب الذي يشعر بعظمة الأمر يخاطب سليمان عليه السلام الناس إذ يحكي عنـــه القرآن قوله : ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ

(١) التحرير والتنوير ٢١/١٥٤.

(٢) أنوار التنـــزيل ٢/٢٢٨.

(٣) التحرير والتنوير ٢١/١٥٥.

وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النمل:١٦] فإن تعليم الله لهم منطق الطير وانفرادهم بهذه الصفة دون غيرهم من الناس يعد أمرا عظيما، فقد نزلهم منـزلة البعيد في خطابهم "تشهيرا لنعمة الله تعالى وتنويها بها ودعاء للناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير وغير ذلك من عظائم ما أوتيه"(١).

ومما يُكرَّم به المنادَى أن يكون النداء بغير الأداة، وذلك لبيان قربه، وللتلطف له وإشعاره بخصوص مكانه لدى المنادِي، وقد بين الزمخشري فائدة ذلك في قوله تعالى: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾ [يوسف:٢٩] حيث يقول: « حذف منه حرف النداء لأنه منادى قريب مُفاطِن للحديث، وفيه تقريب له وتلطيف لمحله »(٢). فحذف الأداة يشعر باقتراب المنادَى من المنادِي مكانا أو مكانة، وفي الآيتين يتبين تكريم المنادَى والتلطف لمحله. ويتضح في هذا النداء أنه لما تبين للعزيز صدق يوسف تبدلت منـزلته عنده، فترك النداء بالأداة الدالة على البعد ليبين قرب منـزلته، ويشعره بإنـزاله منـزلة لم تكن له من قبل، ولا يكون ذلك حتى يظهر في النداء أن أصله كان نداء للبعيد الأقل منـزلة بطريقة الاستعلاء، ثم عُدل عنه إلى خطاب مشعر بقرب المنـزلة، وأن نظرة المنادِي للمنادى اختلفت فاختلف النداء، وهذه الصورة لا يوضحها إلا نداء بغير أداة ليتبين أن حذف الأداة أريد منه بيان منـزلتي المخاطب وأنه أُدنيَ من المتكلم بعد أن لم يكن كذلك. أي أنه كان حقه أن يُنادى بما يدل

(١) أنوار التنـزيل ١٧٢/٢.
(٢) الكشاف ٣١٥/٢.

على البعد ثم عدل عنه إلى ما يدل على القرب. بأن حذفت الأداة الدالة على البعد. وقد تكررت صورة هذا النداء في نفس السورة: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ [يوسف:٤٦] ويذكر البيضاوي ومحشّو تفسيره أن هذا النداء كان لقربه، والذي يفهم منه أن المراد قرب منـــزلته من المنادي، لأن المتكلم (المنادي) في هــذه الآية هو الذي نجا من صاحبيه في السجن، وقد "جرب من أحواله لجواره في دار حبسه من الأمانة والصدق وكمال الورع والعفة" [١]. ما يجعــل رســول الملك يخاطبه بنداء التقريب وإعلاء المنـــزلة.

ثالثا:الحرص على إقبال المنادى:

ذكر البيانيون أن المنادِي لحرصه على إقبال المنادَى فإنه يصير المنادَى عنده كالبعيد لأن النفس إذا اشتد حرصها على الشيء صارت كل ساعة تراه قبل وقوعه في غاية البعد[٢]. ومن أكثر الأمور التي ترغبها النفس وتميل إليها؛ الشفقة والرحمة والعطف. وذلك في بعض ما يعرض إليها من أحوال تستدعيها، وإذا كانت النفس حريصة على الرحمة والشفقة وراغبة في استيجابها من المخاطب فإن نداء المخاطب بطريقة البعد في المواقف التي تفيد الاسترحام والاستعطاف إنما هو لشدة حرص النفس على حصول الرحمة والشفقة، فينـــزل المخاطب منـــزلة البعيد لأن المنادِي يرى المنادَى بعيدا لاستلزام بعده لبعد الرحمة معه، فيخاطبه بنداء البعيد. والعجيب في كلام أهل العلم عن هذا الغرض أن الشيء إذا بعد واشتد حرص النفس عليه وشوقها

---

(١) حاشية القونوي١٠/٣٤٢.

(٢) ينظر مواهب الفتاح (شروح التلخيص٣/٣٣٤).

إليه، فإنه يصير في كل ساعة قبل وقوعه في غاية البعد، غير أن النداء لا يقع على هذا الشيء المطلوب وإنما يقع على من هو بسبب منه، كما مثلوا بقولهم: (يا غلام أين الماء؟) فحاجة النفس وطلبها للماء لأنه هو الذي تراه بعيدا لشدة حرصها عليه وعظم شوقها إليه، إلا أن المنادى حينئذ الغلام وليس الماء وهي لمحة لطيفة، وملاحظة مشرقة، إذا أصبح المنادَى نفسه بعيدا كبعد الشيء الذي طُلب منه، لأنه لما صار المطلوب بعيدا فيما يتصوره طالبه صار كل ما هو منه بسبب في غاية البعد مثله.

وقد يكون من ذلك ما ورد على لسان هارون عليه السلام في استرحام أخيه موسى بندائه بطريقة البعد و لم يكن موسى بالبعيد إنما كان آخذا بلحية أخيه بيدٍ ورأسه بيدٍ أخرى ولا سامعَ أقرب لمتحدث منه لموسى حينئذ،قال تعالى حكاية عن هارون: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ [طه:٩٤] فقد نادى أخاه بصفته ابن أمه استرحاما له واستعطافا لقلب أخيه "وهي عادة العرب تتلطف وتتحنن بذكر الأم"[(١)]. لأنه رأى من موسى غضبا وهو غضب أولياء الله لله، فخشي هارون من غضب أخيه واشتد حرصه على الرحمة والشفقة فناداه بطريقة البعد، وكان أخاه "لأبيه وأمه عند الجمهور"[(٢)] وإنما ناداه بصفة اجتلب فيها ذكر الأم دون غيرها إيقاظا لتلك الرحمة التي تنبعث عند ذكر الأم،لما للأم من حق في برها

(١) البحر المحيط١٨٢/٥، وهذا التفسير ذكره أبو حيان عند آية الأعراف التي ستأتي قريبا، وذكرناه هنا لتشابه مدلول تخصيص الأم بالنداء في الآيتين وهو الاستعطاف والتلطف والتحنن.

(٢) تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)٧١/٢

برحمة ابنها، ولعل في ذلك أيضا توسلا بالأم واستشفاعا بها، فتكف نفس موسى عن الغضب والبطش. قال القونوي: « الأم أشفق وأرفق قلبا وأيضا أن مراعاة حقها أهم وأضاف إليها تذكيرا برقة البشرية، وتحريضا على مخافة حقها، ومن جملتها اللطف بي والتفحص في حالي »(١). وقد نرى في حديث أهل العلم إجمالا في مصدر دلالة النداء على الاسترحام، إذ جعل مصدر الاسترحام والاستعطاف والتلطف هو إضافة المنادى إلى الأم، مع أن للنداء نفسه بصيغة البعد مدخلا أوّليا في إبراز الرغبة في العطف واللطف. فيظهر أن النداء هنا بيان لما في النفس من رغبة في الرحمة، وأما المنادى (ابن أم) فهو رافد لمعنى الاسترحام الذي بعثه النداء. وقد حكى القرآن نداءه لأخيه موسى في آية أخرى بغير أداة النداء، فالظاهر أنهما نداءان في خطاب واحد، والنداء في الآية السابقة هو نداء استرحام كما بينا إذ أخذ موسى بحليته وبرأسه فخشي على نفسه الهلكة من بطش موسى، ثم ناداه هارون ثانية في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف:١٥٠] وليس النداء في الآيتين حكاية لنداء واحد بصورتين،لأن في الثانية مما يتبع النداء ما يختلف عن الأولى، وفي الثانية لطف ليس في الأولى، إذ شعر هارون برحمة موسى له لأن الآية الأولى أخبرت أنه أخذ بلحيته وبرأسه والثانية أخبرت أنه أخذ برأسه فقط، وفي الأولى توسل من هارون ألاّ يأخذ موسى بلحيته ولا برأسه، أما في الثانية فالنداء خلا من توسل هارون، وإنما بين فيه

(١) حاشية القونوي ١٢/٤١٥.

عذره لموسى بقوله:﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ مما يدل على أن النداء الأول كان استعطافا واسترقاقا لقلب أخيه، وأن النداء الثاني حمل تعبيراً عما في نفس هارون من زوال الخوف من بطش موسى، فشعر برحمة موسى له، فنداؤه بغير أداة بقوله: ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ ، يوحي بأنس هارون وزوال وحشة اللحظة الأولى ورهبتها واقتراب موسى إلى نفس هارون فكان مناسبا أن يناديه بغير أداة كما رأينا نداء العزيز ليوسف عليه السلام بغير أداة بعد أن أنست نفسه إلى براءة يوسف، ومما يؤكد أن النداء الأول غير الثاني قول الطاهر عند الآية المحذوف فيها الحرف: « لأن كلامه هذا وقع بعد كلام سبقه فيه حرف النداء وهو المحكي في سورة طه: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾ ثم قال بعد ذلك: ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ فهما كلامان متعاقبان، ويظهر أن المحكي هنا هو القول الثاني، وأن ما في سورة طه هو الذي ابتدأ به هارون، لأنه كان جوابا عن قول موسى: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ »[1].

ونعود لنداء الاسترحام والاستعطاف حيث نجد في قصة بني يعقوب مع أبيهم إذ يخاطبونه بندائه بتنزيله منزلة البعيد في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ [يوسف:١١] وذلك لحرصهم على أن يروا الرحمة من أبيهم فقد تبالغ ذلك الحرص حين علموا أن أباهم إنما يمنع أخاهم منهم وحفظه عن صحبتهم، فصار ائتمان أبيهم لهم على يوسف في نفوسهم أمرا بالغ البعد، إذ يشعرون أنه لن يكون ذلك إلا باستنزال أبيهم بطريق الاسترحام والاستعطاف، ولولا ذلك المعنى لما صح النداء لأن أباهم ليس

(١) التحرير والتنوير ٩/١١٧-١١٨.

غافلا أو ساهيا أو نائما كما أن النداء لا يوحي بتعظيمهم له إذ إن الجملة الطلبية بعد النداء استفهامية فيها معنى العتاب .

وقال بعض أهل العلم إنه استفهام إنكاري وتعجبي(١)، ولا ريب أن كلاًّ من العتاب أو الإنكار لا يستلزم تعظيم المنادَى،بل هو أقرب إلى الإخلال بمعنى التعظيم في الخطاب، فحمل النداء هنا على معنى شدة رغبتهم في الحصول على رحمة أبيهم، ويؤيده ما ذكره بعض أهل العلم من أنهم " خاطبوه بلفظ الأبوة استعطافا له، وتحريكا للحنوّ الذي جبلت عليه طبائع الآباء للأبناء وتوسلا بذلك إلى تمام ما يريدون من الكيد الذي دبروه"(٢). وإذا كان نداء إسماعيل لأبيه عليهما السلام تعظيما للأب، فإن التعظيم لا يتحقق هنا – في نداء بني يعقوب – لما ذكرناه، وشتان بين نداء إسماعيل لأبيه و ندائهم لأبيهم.

ومما هو بسبب من هذا الموضوع – أعني النداء للحرص على إقبال المنادى– نداء ما لا يعقل وذلك لشدة حرص المنادي وتلهفه، وهذا النداء ورد بكثرة في الكتاب الكريم إذ نوديت الحسرة ونودي الويل، ونودي الأسف، ونوديت صيغة التمني (ليت) مضافة إلى ضمير المتكلم، ونوديت عارية عن الإضافة. ولا ريب أن هذا النداء وراءه غرض أساس ينبعث من تنزيل المنادى منزلة العاقل البعيد، وذلك بأن خوطب خطاب العاقل بالنداء، واستعمل معه طريقة البعد. ولم يتجاوز النداء هنا نداء المعاني، إذ لم ينادَ الأعيان والأشخاص، مما يحيط بالإنسان من مخلوقات، وغلب على هذا النداء

(١) ينظر لذلك – مثلا– البحر المحيط ٢٤٥/٦. وفتح القدير ١٢/٣. والتحرير والتنوير ٢٢٧/١٢.

(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ١٢/٣ ، للإمام محمد بن على الشوكاني، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ دار ابن كثير ، دمشق.

أن يكون في مقام التحسر، وقلّ أن يقع في مقام التمني، وندر في مقام الاستبشار، إذ لم يرد إلا مرة واحدة، وهو نداء للهلاك. قال القونوي عن هذا الأسلوب: « فيه استعارة مكنية وتخييلية، شبه الهلاك في النفس بالشخص المطلوب إقباله في كونه مطلوب الإقبال بعد تنـزيله منـزلة العقلاء ادعاء»[1]. وقوله: « مطلوب الإقبال » يشير إلى ما ذكره البيانيون عن هذا الغرض وهو حرص المنادي على المنادى وشدة تعلقه به، لأنه يتباعد عنه الخلاص ساعة بعد ساعة فنداء الهلاك يوحي برغبته الشديدة في الخلاص مما هو فيه، فإن الموت حينئذ أحب إليه.

ويفهم من كلام أهل العلم أن المنادَى في هذا الأسلوب على وجهين أولهما: أن يكون محذوفا مقدراً، والثاني ألا يكون في النداء حذف ولا تقدير وذلك يعني أن المنادَى هو ما دخل عليه حرف النداء، ولعل الأولى إن لم يكن المنادى مقدرا أن يكون المنادى هو المعنى المدلول عليه باللفظ الداخل عليه حرف النداء لا ما دخل عليه الحرف، بتنـزيل ذلك المعنى منـزلة من يعقل، في مثل قوله تعالى: ﴿ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا ﴾ [الأنعام:٣١] وفي حاشية الشهاب: « قال سيبويه: كأنه يقول أيتها الحسرة هذا أوانك، وقال أبو البقاء[2]: معناه يا حسرة احضري هذا أوانك، وهو مجاز معناه تنبيه أنفسهم لتذكر أسباب الحسرة لأن

(١) حاشية الشهاب ٩٩/١٢.

(٢) التبيان في إعراب القرآن٤٩٠/١لأبي البقاء العكبري، تحقيق على محمد البجاوي، لم تحدد طبعته أو تاريخها، مطبعة البابي الحلبي وشركاه، مصر.

الحسرة لا تطلب ولا يتأتى إقبالها، وإنما المعنى على المبالغة في ذلك حتى كأنهم ذهلوا فنادوها كقولهم: (يا وليلتنا) ، قيل والمقصود التنبيه على خطأ المنادِي حيث ترك ما أحوجه تركه إلى نداء هذه الأشياء »[1].

والمجاز الذي ذكره هو تنـــزيل ما لا يعقل منـــزلة العاقل المخاطب حقيقة، فينادى كما ينادى العاقل إظهاراً للندم والأسف على ما كان منهم من تقصير في دنياهم، وهو نداء يبين ذهولهم عن واقع الأمر ونطقهم بما يخالف المعتاد وهو مخاطبة ما لا يستجيب، وفي اختيارهم الحسرة –وهي حينئذ كناية عن رغبتهم في الهلاك– بيان لشدة ندمهم وخسرانهم، إذ لو كان نداؤهم لمن استجابته لهم ممكنة لكان في غير محله لأنه لا مجيب لهم فيما سألوه، فكيف وهم ينادون من يستحيل منه السمع أو الاستجابة، ولعل هذا هو مراد الشهاب بالمبالغة، وفيه بيان لمقدار خيبتهم وخسرانهم.

وأما قوله: « المقصود التنبيه على خطأ المنادي » فإن هذا التنبيه صادر عن المخبِر عنهم وهو القرآن الكريم فغرض الآية التنبيه على أن المنادين بخيبتهم وخسرانهم إنما هم يُعلِمون السامع بأن تركهم لما أُمروا به أحوجهم إلى هذا النداء المنبئ عن خسرانهم، والتنبيه لكي يتجنب المخاطب بالقرآن سلوك سبيلهم، وذهولهم إشارة إلى هول ما وقعوا فيه من المفاجأة حتى فقدوا رشدهم، فنطقوا بما هو من المحال. وقريب من هذا ما جاء في قوله تعالى:﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ [الزمر:٥٦] قال

---

(١) حاشية الشهاب ٤٨/٤. وهذا المنقول عن سيبويه لم أجده في النداء إلا في باب الندبة عند قولهم: (يا للعجب) ونحوها، وهو هنا بمعناه لا بلفظه.

القونوي -مشيرا إلى فائدة في النداء بطريقة البعد-: « أي يا حسرتا احضري فهذا أوانك، ولكمال تأسفه نادى الحسرة والندامة تنزيلا لها منزلة العقلاء، وطريقة البعد لكمال دهشه، أو لأن الحسرة لكونها غير محسوسة كانت بعيدة » (١).

ومما يحتمل أن يكون من هذا القبيل قوله تعالى: ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [يس: ٣٠] لأن ظاهر اللفظ يُفهِم أن نداء الحسرة صدر من المولى عز وجل فوقع لأهل العلم توجيهات في ذلك، إذ حُمل المعنى على أن النداء كان من الملائكة أو من الرسل أو من العباد عموما، لكيلا يكون صدور التحسر من الله، وقد أجاز النداء من الله فريق من أهل العلم على طريق الاستعارة "بأن شبه حال العباد بحال من يتحسر عليه الله تعالى فرضا ولا يلزم أن يكون المشبه به محققا بل يجوز أن يكون مفروضا...إذ الحسرة لا يصح ثبوتها له تعالى على الحقيقة" (٢).

وقد تحاشينا إيراد هذه الآية في نداء الله لخلقه ، إذ الأولى- في نظرنا - ألا يُنسب التحسر إلى الله تعالى، تنزيها له، وإن حمل المعنى على الاستعارة والتشبيه المفروض غير المحقق. وذلك لأن التحسر هو "حالة تعتري الإنسان من غاية الندامة على شيء" (٣). وهو ما لا يناسب مقام المولى عز وجل، على أن فريقا من المفسرين لم يذكروا أن التحسر كان من الله لا حقيقة ولا

(١) حاشية القونوي ١٦/٥٥٨.

(٢) المصدر السابق ١٦/١٢٢.

(٣) حاشية ابن التمجيد١٦/١٢٢.

مجازا[١]. ويؤيد ذلك أن لفظ "حسرة" لم ينادَ في القرآن إلا مضافا إلى ضمير المتكلم كما في آية الأنعام السابقة ، ومثلما في قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر:٥٦] وكذلك الألفاظ الأخرى (ويلتا، ويلتنا، وويلنا)، الدالة على الندم والتأسف لم ترد في النداء إلا مضافة إلى ضمير المتكلم أو ما يجزئ عنه كالألف في (يا ويلتا) . وهذه الإضافة تنبئ عن صدور نسبة الحسرة للمنادي وكأنه ينادي حسرته هو لا غيره، مما يؤكد لنا أن الأولى والأرجح أن النداء في هذا الآية لم يصدر عن الله سبحانه، إنما هو حكاية لنداء مخلوق كالملائكة أو الرسل أو الرجل المؤمن.

وفي نداء الويل والثبور ما يفيد أن المنادِي بلغ من التشوق للخلاص مما هو فيه إلى أن يفضِّل الموت والهلاك على حاله التي هو فيها، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة :٣١] فقد ذكر الشهاب الخفاجي أن هذا النداء "مجاز عن التحسر كأنه ينادي موته ويطلب حضوره بعد تنـزيله منـزلة من يُنادَى، ولا يطلب الموت إلا من كان في حال أشد من الموت، فكنى به عن ذلك"[٢].

والكناية في أن المطلوب يلزم أن يكون أفضل من الموجود فدل بطريق اللزوم على أن الموت أفضل عنده من الحياة التي هو عليها. وخلاصة الأمر أن تَشوُّقَه ولهفته إلى ما هو مستحيل الإجابة جعله يخاطبه بما يخاطب به العقلاء

(١) ومنهم أبو الفرج بن الجوزي، في زاد المسير في علم التفسير ٢٧٨/٦، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ، دار الكتب العلمية، بيروت. وأبو عبد الله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١٧/٨، لم تحدد طبعته، ١٤١٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت

(٢) حاشية الشهاب٢٣٦/٣

ويناديه نداء البعيد. وفي قول الكافرين عند الحشر: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف:٤٩] نداء لهلكتهم وفي إضافة المنادى إلى ضمير المتكلمين إشارة إلى شعورهم بأنه "لا نديم لهم ولا صاحب إلا الهلاك"(١).

وقد جعل البيضاوي بعض هذه النداءات دعاءً على النفس كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٤٦] فيكون التركيب الدال على النداء مستعملا في الدعاء على سبيل المجاز إما مرسلا بعلاقة المجاورة لأن النداء والدعاء يتجاوران في الذهن، وإما مكنية تخييلية بتشبيه مطلق الطلب بخصوص المترجَّى بجامع حرص النفس ورغبتها في كلٍّ. وهو أيضا مما يفيد غاية الندامة والتحسر. لأنه لا يدعو على نفسه بالهلاك إلا من ضاق به حاله ورأى الهلاك أيسر منه.

وهذا النوع من النداء لكونه لا يستعمل إلا في مواطن التحسر المنبعثة من الثبور فإن وروده في كلام امرأة إبراهيم عليه السلام حينما بشرتها الملائكة بالولد، في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود:٧٢] لا يفيد معنى الخسران والثبور وطلب الهلاك، ولكن يحمل على المجاز ليفيد التعجب ، قال البيضاوي: «يا عجباً ، وأصله في الشر(٢) فأُطلق على كل أمر فظيع »(٣) . لأن الأمر الذي دعاها للنداء لم يكن

(١) حاشية القونوي ٩٩/١٢.

(٢) أي أصل استعمال تركيب (يا ويلتا) لا يكون إلا في الشر.

(٣) أنوار التنـزيل ٤٦٣/١.

في الشر، وإنما هو في الخير وهو إنجاب الولد، و لم يُبيّن المفسرون وجه المجاز ، وهو استعارة تمثيلية، حيث استعير التركيب الدال على الخسران والثبور لمعنى التعجب، بجامع هول الموقف وفظاعته، فالتعبير بما هو أدل على هول الموقف لبيان شدة تعجبها من ولادتها على كبر. ويؤيد معنى التعجب في ندائها قول الآية بعدها : ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴾ [هود:٧٣].

أما الوجه الثاني الذي ذكره أهل العلم فهو أن يكون المنادى هو اللفظ الداخل عليه حرف النداء، وقد أشرنا إلى أن معنى هذا أنه نودي المعنى المدلول عليه باللفظ الموليّ حرف النداء ، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا ﴾ [الكهف:٤٩] ولكن هذا الوجه لا يفي بالمعنى المطلوب من إظهار التحسر والثبور، قال الشهاب: «أما تقدير المنادى أي: "يا من بحضرتنا وملتنا" ففيه حذف وتقدير لما تفوت به تلك النكتة »[1] يريد تفويت ما ذكرناه من معان لطيفة عند نداء الهلكة والثبور والتحسر.

رابعا: النداء للتقليل من شأن المنادى :

ينزل المخاطب منزلة البعيد توبيخا أو تهكما أو سخرية به، وذلك بألا يخاطب بالخطاب المباشر وإنما ينادى إشعاراً له ببعد منزلته عن منزلة الحضور، ومن ذلك ما حكاه القرآن في نداء المشركين للنبي عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴾

(١) حاشية الشهاب٦/١٠٨.

[الحجر:٦] حيث خاطبوه بنداء يشعر باستبعادهم صحة نبوته فلم يخاطبوه بصفته نبيا، وإنما خوطب بطريقة النداء تهكما منهم بقضية تلقي الوحي ولذلك فقد أدخلوا بين النداء والطلب جملة خبرية تؤكد سخريتهم وهي قولهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ وهي تخلص منهم من تبعة الإقرار بنبوته ودلالة على معنى الاستهزاء الذي سيق النداء من أجله. واستبعاد للمخاطب من مقام الخطاب بأن ينادى بطريقة البعد لإقصائه عن المنـــزلة التي تجمعه بالمتكلم، وذلك للتهكم والسخرية وهو بُعد يستلزم تعالي المتكلم على المخاطب كما جاء في خطاب فرعون لموسى عليه السلام فيما حكاه تعـــالى عنه في قوله:﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء:١٠١] قال الطاهر: « إنما قال"إني لأظنك يا موسى مسحورا" عنادا ومكابرة وكبرياء »[(١)]وهو كذلك يستلزم معنى التقليل من شأن المخاطب والسخرية منه، ولهذا المعنى من الكبرياء والغطرسة والشدة التي زرعها فرعون في نفوس قومه تجاه موسى عليه السلام فإنهم لا يكفون عن هذه الطريقة في الخطاب من التهكم والسخرية إذ نجدهم ينادون موسى بهذه الصفة الباطلة وهم يسألونه أن يدعو لهم ليكشف عنهم البلاء، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٤٩] فهم يرجون منه أن يدعو لهم و لم تمتد ألسنتهم إلى ندائه باسمه كما في قوله تعالى في آية أخرى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف:١٣٤] بل أصروا على التهكم والسخرية. قال الشهاب: « النداء بالساحر جار على ما جُبلوا عليه من الشدة والحدة

(١) التحرير والتنوير١٤/٢٢٦.

وعلى نهج ما ألفوه من تحقيره ولذا سبق لسانهم له »[1]. وهذا النداء قرينة كذبهم في قولهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ إذ لو اهتدوا لما دعوه بنداء السخرية والاستهزاء. فقد شهدوا على أنفسهم من أول الأمر أنهم ليسوا مهتدين.

ومن تنزيل المخاطب القريب منزل البعيد بأن ينادى بطريقة البعد للتقليل من شأنه وإسقاط منزلته، ما جاء في قصة مريم حين جاءت تحمل ابنها إلى قومها فقالوا: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٨] فنداؤهم لها يشير إلى ما في نفوسهم من سوء ظن بها وقولهم: (أخت هارون) – وهو إما أخوها ، وإما رجل اسمه هارون من قومها كان صالحا، أو أنهم أرادوا هارون النبي عليه السلام لأنها كانت من بنيه[2] – يريدون نسبتها إليه مبالغة في معنى التهكم لأن قرن اسمها باسمه إشارة إلى ما بينها وبينه من بون في نظرهم فهم يلمزونها في عفتها، والبيِّن هنا أنه لا جملة طلبية بعد هذا النداء كما هو المعهود في مثله، لأن غرضهم من النداء ليس إلا السخرية واللمز، لأنه لا دليل عندهم على براءتها لولا ما أجراه الله بإنطاق رضيعها في المهد، ومع ذلك فإن طائفة منهم لم تؤمن بل أصرت على كفرها.

ولعل من هذا القبيل – أعني السخرية – ما ورد حكاية عن موسى عليه السلام في مجادلة فرعون في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢] ففي نداء موسى له رد على تهكمه وسخريته التي أشرنا إليها قريبا ، وفي ندائه كما في

(١) حاشية الشهاب ٧/٤٤٥.

(٢) زاد المسير ٥/١٦٨ بتصرف في العبارة.

نداء فرعون إبعاد للمخاطب عن مقام الحضور إلا أنه في كلام فرعون من منطق الكبرياء والعناد، وفي كلام موسى عليه السلام من باب توقع الخسران لمن هذه حاله، فلما كان خطاب فرعون مبنيا على نداء الاستبعاد والتقليل من المنزلة، كان رد موسى من جنس ما خاطبه به فرعون على حد ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود:٣٨] إذ إن السخرية ابتداء ليست من فعل أولياء الله، بل هي من باب المعاقبة بمثل الذنب، ولا يشكل على هذا ما أوردنا في النداء للتعظيم، وهو قول الله تعالى حكاية عن موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:١٠٤] لأن هذه الآية كانت في مستهل دعوته، وأما آية السخرية فكانت بعد أن تبين لموسى عصيان فرعون وهلاكه، ولذلك حكم عليه بأنه مثبور أي هالك.

الخاتـــمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وقد أتممنا الحديث عـــن مجـــازات النداء وحقيقته في الخطاب القرآني الكريم، وبينا وجه الاســـتعمال ووجـــه الدلالة في تنـــزيل المنادى منـــزلة غيره، واستعمال حرف النداء (يا) مجازا في القرآن الكريم، إذ لم يرد نداء بغيره إلا آية واحدة ورد فيها النداء بالهمزة على احتمال أن يكون لا نداء في الآية، وقد تتبعنا كلام أهل العلم في وجوه النداء وتنـــزيل المنادى منـــزلة غيره إذ هو مناط الحكم باستعمال حرف النـــداء في غير ما وضع له، ثم إن هذا الاستعمال ظهر معه أغراض بلاغية أبرزت ميـــزة النداء في الخطاب القرآني. وكان لهذه الدراسة نتائج نجملها فيما يلي:

أولا: أن استعمال حرف النداء (يا) في القرآن غلب عليـــه الاســـتعمال المجازي، بل لعلنا لا نعدم الصواب إن قلنا إن كل ما في القرآن من هذا إنما هو من المجاز على وجوه محتملة من المرسل والاستعارة التبعية والأصلية.

ثانيا: أن الخطاب القرآني المشتمل على النداء يتميز بالجمع بـــين الحقيقـــة والمجاز، والتركيب المشتمل على النداء تكتسي فيه الألفاظ الحقيقيـــة معـــاني يدعمها الاستعمال المجازي لحرف النداء، وتنـــزيل المنادى منـــزلة غيره.

ثالثا: نداء الله لغير العاقل من مخلوقاته نداء حقيقي إذ تبين مـــن اســـتقراء الآيات أنه خطاب حقيقي وأن حرف النداء وإن استعمل مجازا في نداء هـــذه المخلوقات إلا أن ذات الخطاب حقيقي وليس تنـــزيلا لها منـــزلة العقـــلاء، كما ورد في كلام بعض المفسرين. بل هو خطاب أُلقي إلى سامع مجيب.

رابعا: نداء الله لنبيه محمد عليه السلام في معرض التكليف ليس كنداء غيره من خلقه لأن نداء سائر الناس بصيغة (يا أيها) لتنزيل المنادى منزلة البعيد تنبيها له على عظم الأمر وأن المنادى كالساهي الغافل ، أما النبي فإن نداءه لبيان عظمة منزلته وأهليته للتكليف بالرسالة وأداء الأمانة.

خامسا: أظهر النداء عظمة أسلوب الخطاب القرآني في الدعوة إلى الله والرفق بالمخاطب وتجنب تعنيفه ونبزه بما يكره من الأسماء والألقاب، حتى يستميل قلبه بلطف وملاينة فيَقبَل ويُقبِل.

سادسا: أن القصة القرآنية إذا رويت بصورتين مختلفتين فإن كلا منهما لها مقام وجانب من القصة، وقد تكون إحداهما مكملة للأخرى أو مبينة لها، ولا يلزم أن تكون الصورتان تحملان تكرارا بوجهين من الحكاية. ومثال ذلك ما رأيناه في ندائي هارون لموسى في موضعين من القرآن واتضح أن كلا من النداءين وقع في حال مغايرة لحال الآخر.

سابعا: تعظيم العبد لخالقه وتكريم البشر لبشر مثله يظهر جليا في النداء بغير أداة.

ثامنا: لم يرد في القرآن نداء من الإنس لغير العاقل، مثلما نادى الله مخلوقاته التي لا نعلم لها عقلا، ومثلما رأينا في الشعر العربي من نداء الإنسان لما لا يعقل كنداء الديار، والطير، والراحلة ونحوها. وإنما ورد في القرآن نداء الإنسان لبعض المعاني مثل ندائه للتمني في (يا ليت) ونحوها، وندائه للحسرة والهلاك في مثل: (يا حسرتا)، و(يا ويلتا) ونحوهما.

تاسعا: جعل القرآن النداء تشريفا وتكريما لبعض المقربين من أوليـــاء الله، فلما أراد القرآن بيان اختلاف حال التكريم ترك النداء، وصرف الخطاب إلى الغيبة، كما في نداء الله لآدم وهو في الجنة ثم أمره بالخروج منها بغير نـــداء، وكما في نداء نوح عليه السلام حين اختلفت صورة النداء بعد أن سأل الله ما سأله في ولده.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

المصادر والمراجع

- **ارتشاف الضرب من لسان العرب**، لأبي حيان الأندلسي، بتحقيق د/ رجب عثمان محمد، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، مكتبة الخانجي، القاهرة.

- **الأطول**، لعصام الدين الحنفي، بتحقيق عبد الحميد هنداوي،الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ، بيروت.

- **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، للقاضي ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي، دار الكتب العلمية بيروت.

- **البحر المحيط** لأبي حيان الأندلسي ،المكتبة التجارية، مكة المكرمة.

- **التبيان في إعراب غريب القرآن**، لأبي البركات الأنباري، تحقيق بركات يوسف هبود، لم تحدد طبعته، دار الأرقم ، بيروت.

- **التبيان في إعراب القرآن**، لأبي البقاء العكبري، تحقيق على محمد البجاوي، لم تحدد طبعته أو تاريخها، مطبعة البابي الحلبي وشركاه، مصر.

- **التحرير والتنوير**، للطاهر بن عاشور، غير محدد الطبعة،١٩٨٤، الدار التونسية، تونس.

- **التفسير الكبير** أو **مفاتيح الغيب** للإمام فخر الدين الرازي، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ ،دار الكتب العلمية، بيروت.

- **تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن**، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، الطبعة الأولى ، غير محددة التاريخ، مكتبة الأوس، المدينة المنورة.

- **الجامع لأحكام القرآن**، لأبي عبدالله القرطبي، لم تحدد طبعته، ١٤١٣هـ ، دار الكتب العلمية، بيروت..

- **جواهر الأدب** لعلاء الدين الأربلي بتحقيق الدكتور حامد أحمد نيل، (لم تحدد الطبعة) ١٤٠٤هـ ، مكتبة النهضة المصرية،.

- **حاشية ابن التمجيد على تفسير البيضاوي**، لمصطفى بن إبراهيم الرومي، صححه عبد الله محمود عمر، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ، دار الكتب العلمية، بيروت.

- **حاشية الدسوقي على مختصر السعد** ضمن شروح التلخيص، لم تحدد طبعته، أو تاريخها، دار الباز، مكة المكرمة.

- **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي** المسماة (عناية الراضي وكفاية القاضي). للشهاب الخفاجي، غير محدد الطبعة، أو تاريخها. دار إحياء التراث العربي بيروت.

- **حاشية الصبان على شرح الأشموني**، غير محدد الطبعة أو التاريخ مطبعة البابي الحلبي. مصر.

- **حاشية القونوي على تفسير البيضاوي**، لعصام الدين الحنفي، ضبطه وصححه عبد الله محمود عمر، الطبعة الأولى١٤٢٢هـ ، دار الكتب العلمية ،بيروت.

- **حلية اللب المصون على الجوهر المكنون**، للشيخ أحمد الدمنهوري، بهامش شرح عقود الجمان للسيوطي، لم تحدد طبعته، ١٣٥٨هـ ، مطبعة البابي الحلبي، مصر.

- **روح المعاني**، للعلامة شهاب الدين الألوسي، غير محدد الطبعة أو تاريخها، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- **زاد المسير في علم التفسير** لأبي الفرج بن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ، دار الكتب العلمية، بيروت .

- **سنن الترمذي** لأبي عيسى محمد بن عيسى، بتحقيق كمال يوسف الحوت لم تحدد الطبعة أو تارخها، دار الفكر، بيروت.

- **شرح التسهيل** لجمال الدين بن مالك، تحقيق د/ عبدالرحمن السيد، ود/محمد بدوي، الطبعة الأولى ١٤١١هـ ، دار هجر، مصر.

- **شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان**، لجلال الدين السيوطي، لم تحدد طبعته، ١٣٥٨هـ، مطبعة البابي الحلبي، مصر.

- **شرح كافية ابن الحاجب** للرضي ، غير محدد الطبعة، أو تاريخها، دار الكتب العلمية، بيروت.

- **صحيح الجامع الصغير وزيادته** للألباني، الطبعة الثالثة١٤٠٦هـ ، المكتب الإسلامي، بيروت.

- **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح** لبهاء الدين السبكي، ضمن شروح التلخيص، لم تحدد طبعته، أو تاريخها، دار الباز، مكة المكرمة.

- **غرائب التفسير وعجائب التأويل** لمحمود بن حمزة الكرماني، تحقيق شمران العجلي، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ، دار القبلة، جدة.

- **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير** ، للإمام محمد بن علي الشوكاني، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ، دار ابن كثير، دمشق.

- **فيض القدير شرح الجامع الصغير** لمحمد بن عبد الرؤوف المناوي ، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية ،بيروت.

- **فيض الفتاح على نور الإقاح**، لسيدي عبدالله بن الحاج الشنقيطي، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ، لم يحدد مكان الطباعة.

-**القاموس المحيط** لمجد الدين الفيروزابادي، الطبعة الأولى ١٩٩١م، دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت.

- **الكتاب**، لسيبويه، بتحقيق عبدالسلام هارون – الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ ، دار الكتب العلمية، بيروت.

- **الكشاف** لجارالله الزمخشري. حققه محمد الصادق قمحاوي. الطبعة الأخيرة ١٣٩٢هـ ، مطبعة البابي الحلبي، مصر.

- **لسان العرب** ، لجمال الدين بن منظور، غير محدد الطبعة، دار صادر ، بيروت.

- **مختصر المعاني** لسعد الدين التفتازاني، ضمن شروح التلخيص، لم تحدد طبعته، أو تاريخها، دار الباز، مكة المكرمة.

- **مدارك التنزيل وحقائق التأويل** للإمام عبد الله بن أحمد النسفي الطبعة الأولى، لم يحدد تاريخها. دار الكتب العلمية، بيروت.

- **معاني القرآن** لأبي زكريا الفراء، تحقيق الأستاذ محمد علي النجار،غير محدد الطبعة أو تاريخها، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

- **المفصل**، لأبي القاسم الزمخشري، الطبعة الثانية، غير محددة التاريخ ، دار الجيل ، بيروت .

- **مواهب الفتاح** لابن يعقوب المغربي (ضمن شروح التلخيص، الطبعة غير محددة الطبعة أو التاريخ، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة) .

- **المطول على التلخيص**، لسعد الدين التفتازاني، غير محدد الطبعة ١٣٣٠هـ ، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
• **الملخص**	١٥٩
• **مـــقدمة**	١٦١
النداء الاصطلاح والدلالة البيانية..	١٦٤
القسم الأول: النداء من الله	
أولا: النداء لإظهار عظمة المنادي وعلو منـــزلته	١٧٥
ثانيا: النداء للتشريف والتكريم	١٧٨
ثالثا: النداء لعظم الأمر المدعو له	١٨٩
القسم الثاني: النداء من الخلق	
أولا: النداء لتعظيم المنادى	٢٠٥
ثانيا: النداء لعظم الأمر المنادى له	٢١٠
ثالثا: الحرص على إقبال المنادى	٢١٥
رابعا: النداء للتقليل من شأن المنادى	٢٢٥
• **الخاتــــمة**	٢٢٩
• **المصادر والمراجع**	٢٣٢
• **فهرس الموضوعات**	٢٣٥